

السلسلة الثالثة : قضايا التوعية الإسلامية (١٤)

إنّي آنستُ ناراً

خطوة في طريق الحق

بدر محمد باقر

الباحث في مركز البحوث والدراسات بالمبرة

فهرسة

مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

٢٤٠ باقر، بدر محمد.

إني آنست ناراً/ بدر محمد باقر. - ط١ - الكويت: مبرة الآل والأصحاب، ٢٠١٠

١١٠ص؛ ٢٤سم. - (قضايا التوعية الإسلامية؛ ١٤)

ردمك: ٨-٨٩٥٥-٦٩٩٠٦- ٩٧٨

١-الإيمان ٢- الأدعية والأذكار أ- العنوان ب - السلسلة

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٧٩٢

ردمك: ٨-٨-٩٥٥-٦٩٩٠٦-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

مبرة الآل والأصحاب

هاتف: ٢٢٥٦٠٢٠٣ - ٢٢٥٥٢٣٤٠ فاكس: ٢٢٥٦٠٣٤٦

ص. ب: ١٢٤٢١ الشامية الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت

E-mail: almabarrh@gmail.com

www.almabarrah.net

الفهرس

- مقدمة ٥
- اعتصم باللَّه، والتجئ إليه ١١
- تجرد للحق وأخلص النية للَّه ١٣
- ادع من يسمعك ويقدر على نصرتك ١٦
- قل: صدق اللَّه ٢٣
- اجتهد في إعمال فكرك ٣١
- استدل ثم اعتقد ٣٦
- استدل بالمحكم لا بالمتشابه ٤٥
- السياق من المقيدات ٥١
- كلام العلماء يستدل له لا به ٥٩
- الحق لا يعرف بالرجال اعرف الحق تعرف أهله ٦٣
- تواضع للحق ٦٨
- تجرد للحق وأنصف من تُبغض كما تنصف من تُحب ٧١
- انظر نظرة شمولية للموضوع ٧٤
- ركز على الأصول تأتك الفروع ٨٠
- أفعال الرجال مرآة لما في قلوبهم ٨٤
- الحق لا يتجزأ ٩٣
- المنامات والكرامات ليست معيارا للحق ٩٨
- المراجع ١٠٥


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للَّه حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، الحمد للَّه حتى يرضى والحمد للَّه إذا رضي والحمد للَّه بعد الرضى، وصلى اللَّه وسلم وبارك على سيدنا وحبيبنا وقدوتنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فإن من أسمى المقاصد التي جاء بها الإسلام الاجتماع والائتلاف والاتحاد، وقد أعظم اللَّه تعالى منّته على نبيه ﷺ بتحقيقه الألفة بين أنصاره وأتباعه فقال جل جلاله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ومن تدبر هذه الآية علم أن الألفة إنما كانت بعد الاعتصام بحبل اللَّه والتمسك بدينه، وهذه سنة اللَّه تعالى في خلقه، وقد قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤]، فالعداوة والبغضاء هي نتيجة لا سبب، وهذه الحقيقة يغفل عنها كثير ممن يسعون للتصدي للفرقة وأسبابها، فهم يتصورونها سبباً وأصلًا للنزاعات بينما هي نتيجة للابتعاد عن دين اللَّه تعالى واتباع الأهواء وتقديم حظ

النفس على أمر اللَّه سبحانه ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ فبعد نسيانهم لأوامر اللَّه فشت بينهم العداوة ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾، وبالتالي فسياسة إغفال الخلاف وإظهار المسامحة واستيعاب الآخر ليست حلولًا حقيقية، ولا تتعدى كونها مهدئات أو مسكنات؛ فالبغضاء والشحناء باقية في الصدور، وشرارة صغيرة كفيلة بإيقاظها وإعادتها إلى الواجهة، وتُنسى حينئذ كلُّ دعاوَى التهدئة والتسامح، بينما يكمن العلاج في الالتزام بالدين، ومعرفة كيفية استنباط أصوله، والاحتكام إلى كتاب اللَّه والاستشهاد به، ومعرفة الحدود التي يسوغ الخلاف في محيطها.

ولا شك أن أصل الدين واحد، وطريقه واضح لا لبس فيه، وقد قال اللَّه عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فأعلمنا سبحانه أن صراطه واضح مستقيم بيّن لا لبس فيه، وجاء ذكر الصراط بصيغة المفرد، بينما ذُكرت السُّبُل الأخرى -التي تنأى بسالكيها بعيداً عنه- بصيغة الجمع، ليبين لنا أن سبيل الحقّ واحد، وأهل الحق لا يتعددون، بينما سبل الضلال والغواية والأهواء متعددةٌ، وكلُّها تبعد عن الحق.

وينبغي أن نعلم جميعًا أن كل فرقة من الفرق تَدَّعي أن منهجَها هو الكتاب والسنة، وكل فرقة تدلل على صحة منهجها منهما، حتى تاه كثير من الناس بين هذه الفرق، وما باتوا يستطيعون معرفة الحق، بل منهم من تأزمت حالته وتفاقمت فترك الدين بالكلية، وذلك أن كل فرقة تظهر عوار الفرق الأخرى - إما بحق أو بافتراء - فما عاد يثق بالدين ولا بأتباعه!

وهذه الورقات أكتبها راجيا أن يكون فيها بصيص نور يرشدنا إلى صراط الحق وأهله السائرين فيه، ويعيننا على معرفة صفاتهم وهيآتهم، كي نسير في دربهم، ونحذوَ حذوهم، وننال جوار نبينا ﷺ في جنة الخلد.

وقبل أن نبدأ في ذكر الوسائل التي تعيننا على معرفة الحق وأهله ينبغي علينا التنبه إلى أن الاختلاف نوعان وهما:

١- **الاختلاف الفقهي** (مع الاتحاد في أصول الاعتقاد).

ولا علاقة لهذا الاختلاف بما أردنا بيانه في هذه الورقات إذ إن المختلفين فقهياً هم في الواقع فرقة واحدة والخلاف الفقهي مهما احتدم وتضخم لا يصل إلى حد الخروج من الملة، خاصة وإن كان مرجع الخلاف النزاع في ثبوت بعض الأدلة أو في طرق الاستنباط.

٢- الاختلاف في أصول الاعتقاد.

وهذا النوع هو الذي تنقسم به الأمة، وهو الذي قصده النبي ﷺ بحديث افتراق الأمة، وهو درجات: فمنه ما يكون بدعة غير مكفرة، ومنه ما يكون مروقا من الدين بالكلية.

والاختلاف العقدي على الرغم من خطورته البالغة إلا أنه يمكن التعامل معه، في حال صَفَت النفوس وسَلمت من التعصب المذموم لفرقها التي نشأ معظمها بعد عقود بل ربما قرون من وفاة المصطفى ﷺ.

ونحن ندعو إلى نبذ المسميات الحادثة، والعودة إلى الإسلام الأصيل، فلا تقدم على الإسلام شيئاً، فأنت مسلم قبل أن تنتسب إلى فرقة من الفرق، فاجعل مرجعك هو الكتاب والسنة الصحيحة، اللذان كانا مرجعا للمسلمين قبل الافتراق.

وقد قدمنا ذكر الكتاب لأنه هو المرجع الرئيس وهو المصدر الأول من مصادر التشريع، كما أن كتاب اللّه لا نزاع بين المسلمين في ثبوته، خلاف السنة فإن منها ما قد ينازع فيه المخالف ويزعم عدم صحته، فيكون الرجوع للكتاب حاسما في وأد الخلاف خاصة إن كانت القضية المتنازع عليها متعلقة بأصول الدين.

وقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «كفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً»[(١)]، وهو بهذا قال بما سبقه به أخوه عمر رضي الله عنه: «حسبنا كتاب اللّه»[(٢)]، وقد علم هؤلاء الأكابر، أن كتاب اللّه هو الهدى وبه يُعصم الإنسان من الضلالة، إذ استقوا ذلك من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

وقوله جل جلاله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقد يبتدرنا قائل فيقول: أنت بهذا تدعو إلى إلغاء الآخر.

فأقول إن كان إلغاء المسميات الحادثة والرجوع إلى الإسلام الصافي والحرص على وحدة المسلمين إلغاء للآخر فنعم أنا أدعو إليه، وكل من كان انتماؤه المذهبي أعز عنده من الإسلام، فليبك على نفسه فقد ضل

---

(١) نهج البلاغة خطبة (٨٢) ص(١٧٠)، بحار الأنوار (٧٤/ ٤٢٧).

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته ح(٤٤٣٢).

الطريق وتشربت نفسه الطائفية وأدرانها، أما من كان الإسلام همه وله ولاؤه فسيسعد بهذه الدعوة ويطرب لها، ويشد على أيدي الدعاة إليها.

«فلابد إذن أن نتجرد في فترة الحضانة والتكوين من كل مؤثرات الجاهلية التي نعيش فيها ونستمد منها. لا بد أن نرجع ابتداء إلى النبع الخالص - أي القرآن الكريم- الذي استمد منه أولئك الرجال. النبع المضمون الذي لم يختلط ولم تشبه شائبة نرجع إليه نستمد منه تصورنا لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني ولكافة الارتباطات بين هذين الوجودين وبين الوجود الكامل الحق: وجود اللَّه سبحانه... ومن ثم نستمد تصوراتنا للحياة وقيمنا وأخلاقنا ومفاهيمنا للحكم والسياسة والاقتصاد وكل مقومات الحياة»[١].

فإن اتفقنا على هذا الأصل يبقى علينا تقرير منهجية سليمة نميز بها الحق من الباطل والصحيح من السقيم، والحجة من الشبهة، ونسبر أقوال الفرق المختلفة ونحللَّها ونتأكد من مدى صحتها.

وهذا الكتيب المختصر عبارة عن نقاط أو مبادئ استفدتها من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، وقد دلل عليها أهل العلم وقرروها. وهذه المبادئ يتمكن المسلم بواسطتها من تمييز الحق ومعرفته، ليسهل عليه اتباعه، وقد ضربت على أغلبها أمثلة من الواقع لتيسير فهمها واستيعابها وتطبيقها.

كما أني ردَدتُّ من خلال هذه النقاط على بعض الشبهات الرئيسية التي يتعلق بها المتطرفون برد عام يصلح لهدم الشبهة وفروعها بإذن اللَّه تعالى، وأعرضت عن

(١) معالم الطريق للأستاذ سيد قطب رحمه الله بتصرف يسير نقلا عن مختصر العلو للشيخ الألباني رحمه الله.

التفاصيل ولو فصلتُ لطال هذا الكتيب، وهو خلاف مقصودي.

راجيا من اللَّه التوفيق والسداد، وأن ينفعني عملي هذا يوم لا ينفع مال ولا بنون.

واعلم أخي القارئ أن ما بين يديك إنما هو جهد مقل من عبد مذنب مقصر، فما كان فيه من حق فهو من اللَّه سبحانه، وما كان فيه من خطأ وزلل فهو من نفسي ومن الشيطان، وأرجو ممن قرأ هذه الكلمات وانتفع بها أن يدعو لي ولأهلي بالهداية والرحمة والمغفرة والرضوان.

والحمد للَّه رب العالمين

بدر محمد باقر

BBaqer@gmail.com

اعتصم باللَّه، والتجئ إليه

الاعتصام باللَّه: هو التمسك بعهده وميثاقه الذي عهد في كتابه إلى خلقه، من طاعته وترك معصيته[(١)].

وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

فالاعتصام باللَّه والتوكل عليه هو العُمْدة في الهداية، والعدَّة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد[(٢)].

وقد روي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «من اعتصم باللَّه لم يضره شيطان»[(٣)].

ولهذا الاعتصام شروط[(٤)] لا بد من توافرها يعرف بها الإنسان حقيقة أمره، ويختبر من خلالها صدق ما في نفسه، وهي كالتالي:

١- أن يكون اللَّه سبحانه وتعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أحب إليه مما سواهما، فيكون حبُّ من سواهما تبعاً لهما، ويُعرف صدق حب الرجل للَّه تعالى ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بقدر اتباعه للكتاب والسنة.

٢- أن يكون الشخص ربانيًا، لا ينظر إلى عصبية جاهلية، ولا لهوىً، ولا لعَرَض من أعراض الدنيا.

---

(١) تفسير الطبري (٩ / ٣٤١).
(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ٨٦).
(٣) مستدرك الوسائل (١١/ ٢١٥).
(٤) هذه الشروط مستفادة من كلام للشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «زهرة التفاسير» (١/ ١٣٣٤).

٣- أن يتجه إلى اللَّه ويتذكره عندما ينزغ فى النفس نازغ، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾ [فصلت: ٣٦]، وكما قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٤- أن يتوكل على اللَّه حق توكله، فيدبّر الأمور ويعتزمها ثم يفوض أمر مصايرها إليه سبحانه وتعالى، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه. وهذا وعد من اللَّه تعالى، واللَّه لا يخلف الميعاد.

٥- أن يبتعد عن مواطن الريب، ولا يتبع الشبهات، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

٦- أن يكون غرضه طلب مرضاة اللَّه تعالى، لا طلب مصلحة الوقت؛ لأنه لو كان مطلوبه جلبَ المنافع ودفعَ المضار الدنيوية لتَغَيَّرَ عن التوبة وإصلاح العمل سريعاً، أما إذا كان مطلوبه مرضاة اللَّه تعالى وسعادة الآخرة والاعتصام بدين اللَّه بقي على هذه الطريقة ولم يتغير عنها(١).

ومن المعلوم أن تحقيق الإنسان لهذه الشروط ليس بالأمر السهل ويحتاج إلى مجاهدة ومدافعة وسعي دؤوب لترويض النفس، وحثها على الخير وتذكيرها باللَّه واطِّلاعه علينا ومراقبته لنا، وعلمه وإحاطته بما في صدورنا، فعلينا بذل الوسع والطاقة، واللَّه تعالى ييسر الأمر على عبده بقدر صدقه وإخلاصه.

---

(١) تفسير الرازي (١١ / ٧٠) بتصرف.

تجرد للحق وأخلص النية للَّه

إخلاص النية هو عنوان الفلاح ودليل الرشد والصلاح، فلا ينال التوفيق إلا مخلص، ولا ينال الهداية إلا من طلبها من اللَّه سبحانه بقلب صادق ونية خالصة، واعلم أن أبرز صور الإخلاص قبول الحق بغض النظر عن مصدره؛ فالنفس عادة تميل إلى نبذ قول المخالف، وتحن إلى ما ألفته ونشأت عليه.

وينبغي على طالب الحق أن يعرف خفايا نفسه، ويقيّم أسبابَ قبولها أو رفضها للحجة، هل هو نابع من يقين جازم أو من ميل وهوى، نسأل اللَّه السلامة. وسبيله إلى معرفة ذلك هو مواجهته لنفسه واستعانته بالعلم الذي يمكنه من تقييم الأدلة.

واعلم أن إخلاصك هو من أهم أسباب نصر اللَّه تعالى لك، وأن أهل العلم والفضل على مر الزمان يدركون هذه الحقيقة، فقد قيل لحاتم الأصم: أنت رجل عيي[١] لا تفصح، وما ناظرت أحداً إلا قطعته[٢]، فبأي شيء تغلب خصمك؟ قال: بثلاث، أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ لساني عن أن أقول له ما يسوؤه. فذُكِرَ ذلك للإمام أحمد فقال: ما كان أَعقَلَهُ من رجل[٣].

---

(١) العيي: هو الذي لا يجيد الكلام، ولا يحسن البيان.
(٢) قطعته: أي غلبته.
(٣) الفرق بين النصيحة والتعيير لابن رجب الحنبلي ص (٣٢).

فكان إخلاصه وتجرده سبباً في توفيقه وتفوقه على خصومه.

ومن أجمل وأرق وأروع الحكم في هذا الباب قول الفاروق عمر رضي الله عنه: «فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه اللَّه ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه اللَّه»[1].

«وهاتان الكلمتان من كنوز العلم، ومَن أحسن الإنفاقَ منهما نفع غيره وانتفع غاية الانتفاع. فأما الكلمة الأولى فهي منبع الخير وأصله والثانية أصل الشر وفصله؛ فإن العبد إذا خلصت نيته للَّه تعالى وكان قصده وهمه علمه لوجهه سبحانه كان اللَّه معه فإنه سبحانه مع ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾، ورأس التقوى والإحسان خُلُوصُ النية للَّه في إقامة الحق، واللَّه سبحانه لا غالب له، فمن كان معه فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء. فإن كان اللَّه مع العبد فمن يخاف، وإن لم يكن معه فمن يرجو وبمن يثق ومن ينصره من بعده، فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولا وكان قيامه باللَّه وللَّه لم يقم له شيء ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه اللَّه مؤنتها وجعل له فرجا ومخرجاً.

وأما قوله: «ومن تزين بما ليس فيه شانه اللَّه» لما كان المتزين بما ليس فيه ضد المخلص؛ فإنه يظهر للناس أمراً وهو في الباطن بخلافه، عامله اللَّه بنقيض قصده، فإن المعاقبة بنقيض القصد ثابتة شرعاً وقدراً ولما كان المخلص يُعَجَّلُ له من ثَواب إخلاصه -الحلاوة والمحبة والمهابة في قلوب الناس- عُجِّل للمتزين بما ليس فيه من عقوبته أن شانه اللَّه بين

---

(١) سنن البيهقي الكبرى (١٠/ ١٥٠).

الناس لأنه شان باطنه عند اللَّه وهذا موجَبُ أسماء الرب الحسنى وصفاته العليا وحكمته في قضائه وشرعه.

هذا ولما كان من تزين للناس بما ليس فيه من الخشوع والدين والنسك والعلم وغير ذلك قد نصب نفسه للوازم هذه الأشياء ومقتضياتها فلا بد أن تُطلب منه، فإن لم توجد عنده افتُضح، فيشينه ذلك من حيث ظن أنه يزينه. وأيضاً فإنه أخفى عن الناس ما أظهر للَّه خلافه، فأظهر اللَّه من عيوبه للناس ما أخفاه عنهم جزاء له من جنس عمله. وكان بعض الصحابة يقول: «أعوذ باللَّه من خشوع النفاق» قالوا: وما خشوع النفاق قال: «أن ترى الجسد خاشعا والقلب غير خاشع».

وأساس النفاق وأصله هو التزين للناس بما ليس في الباطن من الإيمان. فعلم أن هاتين الكلمتين من كلام أمير المؤمنين مشتقة من كلام النبوة وهما من أنفع الكلام وأشفاه للسقام»[(١)].

ولا بد لك إن كنت راغبا بتحقيق الاعتصام وصدق الإخلاص أن تستعين على نفسك وشيطانك بمن يقدر على كَفّ أذاهم عنك وسبيلك إلى ذلك رَفعُ يديك بالدعاء والطلب من رب السماوات والأرض وهذه هي نقطتنا التالية.

❋ ❋ ❋

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢ / ١٩٩-٢٠٢) بتصرف.

ادع من يسمعك ويقدر على نصرتك

اتفق العقلاء على أن أقصر طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم بينهما، فإن كنت تريد أن تشتري سلعة تهمك، فيجب عليك أن تجمع مالا لهذا الغرض، وبعد هذا تتوجه إلى مالك هذه السلعة لتشتريها منه، أليس كذلك؟ هكذا هو الأمر بلا أي تعقيدات.

ولكن تخيل معي أن المشتري -وبعد أن جمع المال- توجه إلى البحر وألقى فيه المال، وصاح برجل يركب قاربا في عرض البحر طالبا منه أن يأخذ المال ويشتري السلعة له من مالكها! وعندما تسأله عن سبب هذا الفعل يجيبك وعيناه تفيضان ورعا وتقوى، أن هذا الشخص -الذي في عرض البحر- له منزلة ومكانة عند مالك السلعة، فهذا أدعى لقبوله طلبي لشرائها! فتتعجب وتقول له: ولكن مالك السلعة بجوارك، ومتجره مفتوح أمامك، وإن قدمت له ثمن السلعة فهو سيسارع بإعطائها لك، فكيف تترك هذا السبيل الواضح وتفعل هذا الفعل الغريب اللامعقول؟ ثم ما أدراك إن كان هذا الرجل قد سمع نداءك؟ بل وحتى لو سمع نداءك فكيف سيتمكن -وهو في عرض البحر يصارع أمواجه- من التقاط المال وقد ألقيته بعيدا عنه وقد ابتلعه الماء، وعندما يرجع صاحبك من وسط البحر قد ينكر سماعه لك، وينكر تسلمه للمال، فلماذا تباعد على نفسك الطريق وتصعب على نفسك المهمة؟!

والآن وفقا للمثال السابق - ولله سبحانه المثل الأعلى- أعرني عقلك

وقلبك، وتدبر معي الآيات التي سأوردها لك، قال اللَّه عز وجل في كتابه الكريم: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

يقول اللَّه تعالى لك: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ﴾.

أي أنه هو المالك لكل ما تطلبه وترجوه، فكيف تتخطاه إلى من لا يملك؟

ثم يقول عز شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

أي: كل من توجهت لهم بالدعاء والطلب والرجاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً من دون اللَّه، فكيف ترجوهم دونه؟ وهذا الأمر يشترك فيه الأنبياء والزهاد والعُبَّاد والملوك، وسائر أهل الأرض، فكلهم عبيدٌ لجبَّار السماوات والأرض. وقد أمر اللَّه تعالى رسولَنا الكريم بإبلاغنا هذه الحقيقة؛ فقال تعالى في كتابه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ﴾ [يونس: ٤٩] فنفى رسولُنا ﷺ عن نفسه الحول والقوة، وعلقها باللَّه تعالى. فإن كان هذا هو حال نبينا ﷺ فكيف بمن هو دونه؟ وكيف -باللَّه عليك- تترك من يقدر وتُعلّق نفسك بمن لا يقدر؟ أوَيفعل هذا عاقل؟!

ثم يقول سبحانه: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ﴾.

دعاؤك لغير اللَّه كدعاء صاحبنا لمن هو في وسط البحر، فلن يسمع نداءه

ولو سمع لما استجاب له.

ومن الغريب أن بعض المسلمين -هداهم اللَّه تعالى إلى الصواب- يسعى جاهدا لإثبات سماع الأولياء في قبورهم، ويبذل في سبيل إقناع المسلمين بهذه العقيدة الغالي والنفيس، وبعد إيهام المسلمين بصحة ذلك يطلب منهم أن يوجهوا دعاءهم إلى هؤلاء الموتى، وفساد هذا لا يحتاج إلى دليل، إذ حتى لو تمكن من إثبات سماع الموتى في قبورهم فهو عاجز عن إثبات قدرتهم على الإجابة وتلبية النداء فقد نفاها اللَّه تعالى عنهم كما في الآية السابقة.

ثم، يقول عز من قائل: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

تلك ساعة الحقيقة ففي يوم القيامة سيتنكر لك الذي دعوته من دون اللَّه ويقول: كيف تطلبني وترجوني وتتركُ ربَّ العالمين؟ أتدعوني من دون اللَّه! أنا عبدٌ مثلك لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء اللَّه، ألا تراني لم أقدر أن أدفع عن نفسي الجوعَ، ولا العطشَ، ولا المرضَ، بل ولا الموتَ، حاجتي وحاجتُك إلى اللَّه، وأنا قد طلبتُها ممن يملكها أما أنت فقد ضللت الطريق ورجوتني، وأنا لم أطلب منك ذلك، فاللَّه تعالى يحكم بيننا.

ثم أخي أدعوك إلى قراءة الآيات التالية وتدبرها، وكفى باللَّه حَكَما: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾.

خلاصة القول: لا تجعل دينك عرضة للمجازفات، واسلك آمن الطُّرق وأسلمَها ترشد وتنجو؛ فدعاء اللَّه وحده لا يختلف عليه اثنان، وكل الملل تتفق على أنه الأصل، بينما اتخاذ الأولياء وُسَطاء أو شفعاء لا يخلو من مجازفة، فلماذا تخاطر؟

والآن يا عبد اللَّه، أنت تطلب الهداية إلى الحق وهو أغلى مطلب.

أليس من الأولى أن تأخذ بصحيح الأسباب وأعلاها فتستعد بالصالحات والقربات، من صلاة أو صدقة أو غيرها من الطاعات، ثم لا يتبقى عليك إلا أن تتوجه إلى رازق الهداية، فترفع يديك إليه خاشعا متذلّلا، راهبا راغبا، فتطلبها منه سبحانه وإنه سبحانه حيي كريم، يستحيي أن يرفع عبده يديه إليه فيردهما خائبتين[١] وهو سبحانه أكرم من سئل، وأجود من أعطى، وهو أقرب إليك من حبل الوريد.

ولا أبعَدَ ولا أضل ممن يزعم أن سبيلك كي تنال مطلوبك من الكريم المنان أن تسأله عن طريق فلان أوفلان.

ويمثّل لك ذلك بأنك إن شئت أن تطلب من ملك أو مسؤول فلا بد أن تلجأ إلى قريب ذي حظوة عنده، فيلين له قلب الملك فيجيب سؤالك ويلبي طلبك، وإن أتيته بنفسك فلن يلقي لك بالا؛ فلَستَ ذا شأن عنده. ويزيد في تلبيسه ويقول: أنت عبدٌ مُثقَلٌ بالذنوب والخطايا فكيف ترجو من اللَّه الإجابة؟ فاطلب من فلان الولي فهو أقرب إلى اللَّه منك، وادعه وتوسل

(١) رواه الترمذي في سننه كتاب الدعوات ح (٣٥٥٦) وقال: هذا حديث حسن غريب ، وقد صححه الشيخ الألباني رحمه الله .

(٢) الحديث رواه مسلم كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من ثواب بعد وفاته ح(١٦٣١).

به إلى اللَّه. ونسي أن هذا الولي في لحده هو أحوج إليك منك إليه، فقد انقضى أجلُه، وانقطع عمله، إلا ما قدم من علم، أو صدقة، أو ولد صالح يدعو له، كما أتى في محكم الأثر[١].

ولعمري ما طعن باللَّه طعن أشد من هذا إلا من قال هو ثالث ثلاثة.

ولنا أن نسأل: إن كان الملك عادلا يعطي كل ذي حق حقه وبابه مفتوح لكل أحد فمن يحب أن يكون لأحد عليه منة؟ وإذا أضفنا إلى هذا أن هذا الملك يعرف حال من لجأ إليه وصدقه من كذبه، فهل يلجأ إلى غيره عاقل؟

فتمثيله بمثال الملك أو المسؤول السابق، هو من تلبيس إبليس، ومما فسد من مقاييس، فقد قاس اللَّه بالعبيد، وجعله كالملك الظالم الذي يحتاج إلى من يقدم إليه طلب السائل، وألصق باللَّه جهل هذا الملك بحال صاحب الحاجة، فصيّر اللَّه محتاجا - عياذا باللَّه- إلى من يوصل إليه طلبات العبيد، ومن يعرفه بحالهم وحاجتهم.

كما أنه قد جعل هذا الوليَّ أرحمَ بالعباد من رب العباد.

ولنا أن نسأل هذا المسكين: هل يعلم هذا الولي ما لديك من ذنب أو تقصير أم لا؟ فإن قلت نعم فقد جعلت وليك هذا أرحم بك من ربك، وأقرب لك منه.

وإن قلت لا لزمك التناقض؛ فقد جعلته سميعا بصيرا قادرا عالما بشكاوى وحاجات العباد حسب مشيئتك ودونما دليل، ونفيت عنه هذا العلم حين أحسست بضعف موقفك، وقلة حيلتك، وفساد دعواك. وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل.

وأخيراً أختم بموقف ذكره لي أحد الأحبة، ويكنى بأبي يوسف، يقول: في أحد الأيام كنت بحاجة لأن أقدم معاملة لنقل زوجتي من قسمها الذي تعمل فيه إلى قسم آخر، ومدير الإدارة المختص بهذه المعاملة صديق لي، وعلاقتي به وبمساعده طيبة، فتوجهت إلى الوزارة، ودخلت مكتب المدير، وإذا بمساعد المدير يرحب بي ترحيبا شديدا ويقول لي: ما الذي جاء بك إلينا؟ فقلت: لَدَيَّ هذه المعاملة لنقل زوجتي من أحد الأقسام إلى آخر، فقال لي: هات المعاملة، واعتبر زوجتك قد انتقلت إلى القسم الذي ترغب به. ويكمل أبو يوسف ويقول: فشكرته وودعته وطلبت منه أن يبلغ تحياتي للمدير وانصرفت إلى شؤوني.

وبعد أيام كنت مدعوا لزيارة أحد الأصدقاء وكان صديقي المدير مدعوا أيضاً، ورأيته فتوجهت إليه مبتسما ففوجئت به يقابلني بوجه عابس ولا يرحب بي كعادته، فاستغربت موقفه، وجلست بعيدا أفكر في أمره، ولماذا عاملني بهذه الطريقة، وحاولت مرة أخرى أن أحدثه فصدني ورد علي بجفاء لم أعتده منه قط، فقررت أن أحسم أمري وتوجهت إليه وأمسكت بيده وقلت: ما بك يا فلان؟ لست معي كعادتك فلم أعتد منك هذا الجفاء، بل اعتدت على البشر والترحيب منك فماذا جرى كي تعاملني هكذا؟ فنظر إلي وفي عينيه لوم وعتب وقال: يا فلان هل قصرت معك في شيء؟هل أتيتني وطلبت مني طلبا وبخلت عليك به؟

قلت متعجبا: لا، ما قصدتك بشيء ورددتني خائبا.

فقال: فكيف تركتني وتوجهت إلى مساعدي طالبا منه إنهاء معاملة زوجتك؟ وأفاجأ به يأتيني بمعاملتها ويطلب مني توقيعها، ألا تعلم أن في

هذا إهانة شديدة لي!

يقول أبو يوسف: عندها نسيت من حولي وأحسست برجفة تكتنف كياني وتهز أركاني فتفكرت بأن هذا العبد الفقير قد أحس بالضيق لأني تركته وتوجهت إلى غيره وهو مجرد مدير لدائرة حكومية، فكيف برب السماوات والأرض ملك الملوك؟ وعلمت لماذا شدد اللَّه تعالى على عبيده النكير إن توجهوا إلى من هو دونه، فكيف يتركونه ويقصدون غيره في حاجاتهم وهو قد أكرمهم وأسبغ عليهم نعمه؟ وكيف يسألون غيره وهو أقرب إلى عبيده منهم؟ سبحانه له الكبرياء في السماوات والأرض، وأسأله سبحانه أن أكون وإياك ممن قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٥٥].

* * *

قل: صدق اللَّه

ما من إنسان إلا وقد اعترضته أمور أثارت حيرته وأقضت مضجعه وأرقت أجفانه، ونحن في زمان قد اختلط فيه الحق بالباطل وصار التفريق بينهما عسيرا لا لخفاء الحق بل لطغيان الجهل وتفشيه، بحيث بتنا نجهل مبادئ أساسية كانت تعتبر مسلمة لدى الأجيال الماضية، فكان هذا الجهل سببا في انتشار الشبهات وشيوعها واغترار البعض بها.

وقد مررت شخصيا بتجارب عديدة قاسيت فيها مرارة الحيرة وذقت - بحمد اللَّه تعالى- لذة معرفة الحق واطمئنان النفس به، وأسأله تعالى أن ييسر لي إعانة إخوتي على تذوق حلاوة الهداية ونور الحق.

إن الفتنة التي جرت في عهد صحابة رسوله اللَّه ﷺ من أعظم الفتن خطرا وأثرا على أمة الإسلام ، وهذه الفتنة لها خصوصية نادرة الحدوث، وهي أن خطرها الأكبر ليس على من باشرها، بل هو أكبر وأعظم على من لم يباشرها.

فقد جاء بعدهم أقوام ولغوا في هذه الفتن وأطلقوا ألسنتهم ونالوا من الذمم والأعراض، وبدأوا بإثارة الشبهات والاقتيات على ما سقط من الروايات، فشوهوا الصورة وكثفوا الحيرة، فباؤوا بإثمهم وإثم من أزاغوه بعدهم نسأل اللَّه السلامة.

فأقول إن دين اللَّه تعالى يسير سهل، خال من تعقيد، وسبيل النجاة واضح ميسر، ولستَ بحاجة لأن تكون عالماً جهبذاً لتنجو وترشد، بل ديننا صالح

لكل أنواع العقول، ولهذا السبب أسقط اللَّه تعالى التكليف عن الصغير والمجنون فالأول لم يكتمل عقله، والثاني فاقد له.

فإذا عرفنا هذا فهل سبيل معرفة الحق بخصوص الفتنة التي وقعت في صدر الإسلام بهذا التعقيد؟

وهل تتعلق نجاة المسلم بفتنة حارت فيها العقول حتى اعتزلها أكثر صحابة النبي ﷺ وهم بلا شك أعلم الأمة وأبرها قلوبا وأخلصها نية؟

وخير جواب على هذين السؤالين هو قول اللَّه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فالآية الكريمة تنص وبجلاء أن اللَّه جل وعلا لا يريد التعسير، وإن من كمال كرم اللَّه سبحانه وتعالى تيسيره سبيل الهداية للناس، فهو يعطي الكثير الجزيل، مقابل أقل القليل سبحان ربي ما أكرمه.

وقول رسوله ﷺ: «أفلح إن صدق» والأثر قد أخرجه البخاري من حديث طلحة بن عبيد اللَّه رضي الله عنه فيقول: «أن أعرابياً جاء إلى رسول اللَّه ﷺ، ثائر الرأس، فقال: يا رسول اللَّه أخبرني ماذا فرض اللَّه علي من الصلاة، فقال: الصلوات الخمس إلا أن تطوع شيئاً، فقال: أخبرني ما فرض اللَّه علي من الصيام، فقال: شهر رمضان إلا أن تطوع شيئاً، فقال: أخبرني بما فرض اللَّه علي من الزكاة، فقال: فأخبره رسول اللَّه ﷺ شرائع الإسلام، قال: والذي أكرمك لا أتطوع شيئا ولا أنقص مما فرض اللَّه علي شيئا، فقال رسول اللَّه ﷺ: أفلح إن صدق أو دخل الجنة إن صدق»[1].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الصوم باب وجوب الصوم ح(١٨٩١).

فيعلم مما سبق أن الالتزام بأداء الفرائض مع سلامة المعتقد كاف في نجاتك من العذاب ودخولك الجنة، وهي شهادة رسولنا ﷺ للرجل بالفلاح، وما خوض الرجل في بحار العلوم المختلفة إلا لمزيد من النفع له ولأمته وتستطيع يقينا أن تنجو يوم القيامة دون التعرض لهذه الفتنة ودون معرفة تفاصيلها فتعصم لسانك عن الخوض فيها، وتحفظ دينك من أن يخدشه سوء ظنك بأصحاب رسولك ﷺ، وتأكد أنك لن تُسأل من المحق ومن المصيب ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥].

أما إن كان الرجل قد وقع في الشبهات، وأثّرت في نفسه ووجد صعوبة في التعامل معها، فالحل الأمثل هو اللجوء إلى رب العزة بالدعاء، كما سبق وأوردنا والتقيد والالتزام بعلاج الصدور من أسقامها بأشرف دواء، وهو وحي اللّه سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وكيفية الاستفادة من هذا الدواء تتلخص في التصديق والانقياد، وسنضرب لذلك أمثلة ثم نختمها بالحل الناجع لمن ثقل صدره بحمل الضغينة على خير البشر بعد الأنبياء، نتيجة لما تعرض له من شبهات.

أقول مستعينا باللّه وحده قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وها هي الأشياء حولنا لا نسمع تسبيحها ولا نشعر به، فهل نرد آيات الكتاب لمخالفة الحس الظاهري لها أم نقبلها ونؤمن بها حتى مع عدم

رؤيتنا لمصداقها؟

وكذلك الحال في سائر الغيبيات ولنأخذ عذاب القبر كمثال، لقد نص الوحي على أن الإنسان بعد دفنه تأتيه الملائكة وتقعده وتسأله وأنه يعذّب وينعّم، ويضم عليه القبر، وأن قبر الكافر يضيق عليه حتى تختلف أضلاعه، وأن قبر المؤمن يمد له فيه مدى بصره، إلى آخر هذه الأخبار الغيبية، وكل ذلك مما لا يدركه الحس الظاهر قطعا، بل قد يدل على خلافه .

وقد حاول بعض الملاحدة إنكار هذه الغيبيات عبر تجارب كوضع أجهزة لمراقبة القبور وما يحصل فيها بعد الدفن، وذلك في محاولة لإثبات عدم صحة نصوص الوحي، وبالتالي بطلان الشريعة، وأذكر أن أحدهم قد أبلغني بوجود قريب له، ينكر عذاب القبر بدعوى أن هناك من قام بتجارب ملخصها: وضع مادة الزئبق على الميت ثم دفنه، وإعادة فتح القبر بعد أيام، ليجدوا أن الزئبق بقي كما هو ولم يتحرك، مع أن من خواص الزئبق سرعة التأثر بالحركة، فاستنتجوا من ذلك عدم إقعاد هذا الإنسان وعدم سؤاله، فنفوا السؤال ونفوا عذاب القبر بل ونفوا الآخرة نعوذ باللَّه من الخذلان، وقد رددت عليه قائلا: سبحان اللَّه! أفأؤمن بالغيبيات كلها، وأؤمن بقدرته تعالى على إعادة الخلق وبعثهم ونشرهم وحسابهم، ولا أؤمن بقدرته على إقعاد الميت دون تحريك الزئبق! أو قدرته تعالى على إعادة الزئبق بعد سؤال الميت سبحانك ربي هذا بهتان عظيم.

فأعود وأقول نؤمن بكل هذا، ونؤمن بكل ما صح عن رسولنا ﷺ ولو لم تدركه حواسنا أو عقولنا، ولو أن عقولنا أو حواسنا خالفت وحي اللَّه تعالى

فنحن نتهمها ولا نتهم وحي اللَّه جل وعلا، والعيب والقصور منا ومن جهلنا لا من جهة الوحي الكريم.

وما سبق هو حال كل مؤمن باللَّه تعالى، فمالنا نطبق هذه القاعدة في أمور ونتركها في أخرى؟

إن اللَّه تعالى قد مدح الصحابة رضوان اللَّه تعالى عليهم وزكاهم في آيات كثيرة وبين سبحانه الألفة والتراحم والمحبة بينهم بما لا يترك أمامنا مجالا للشك والارتياب فقد وصف سبحانه العلاقة بينهم بالتالي:

قال تعالى عنهم: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

فهل يمكن أن ننفي هذا التراحم بينهم وقد أثبته اللَّه جل وعلا؟

وقال تعالى عنهم: ﴿إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

من هم الذين كانوا أعداء؟ أليسوا هم أصحاب النبي ﷺ؟ فألف بينهم وأعز بهم رسوله ثم نأتي وننكر هذا التأليف؟

وقال أيضاً عنهم: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فيمتن اللَّه تعالى في هذه الآية على رسوله ﷺ بأنه قد ألف بين أصحابه، وشهد اللَّه تعالى بالتأليف القلبي، وهو المطلع على ما في القلوب فهل يؤلف اللَّه تعالى بين الصحابة ثم يأتي إنسان ويقول: أن الصحابة كانوا يبغضون ابنة النبي أو ابن عمه، فما قيمة هذا التأليف إذا كان النبي ﷺ وقرابته غير مشمولين به؟ وكيف يمتن اللَّه تعالى به علي نبيه ﷺ؟ وكيف ينصر اللَّه

تعالى أمة أبغضت نبيها وعادته؟

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

في هذه الآية يثبت اللَّه تعالى محبة الأنصار للمهاجرين رضي الله عنهم أجمعين، والنبي صلوات ربي وسلامه عليه وآله على رأس هؤلاء المهاجرين، فالنبي وآله مشمولون في هذا الخطاب حتما، فكيف يمكن أن نثق بمن ينفي هذه المحبة ويثبت ضدها؟ وهل نقدم قول اللَّه أو قول من عداه؟

والأدلة على هذه المحبة أكثر من أن نحصرها ونكتفي بما سبق ثم نسأل:

ماذا لو قدر اللَّه تعالى لك أن تكون في عصر الصحابة، وأن تشهد بعينك اقتتالهم(١)، وأنت تقرأ في صلواتك كلام اللَّه تعالى الذي يؤكد المحبة والألفة بينهم، هل تقدم الظاهر المرئي أمامك، على قول اللَّه تعالى، وهل تثق بعينيك وسمعك أكثر من ثقتك باللَّه تعالى، أم أنك تقول: صدق اللَّه تعالى، بل قلوبهم مؤلفة وهم رحماء بينهم حتى وإن ظهر لي غير هذا، فكم من أخ قد قاتل أخاه، وكم من أب قد جافى ابنه، وكم

---

(١) الحرب التي وقعت بين الصحابة يصح أن توصف بأنها أنبل حرب في التاريخ، فأين يمكن أن ترى حربا لا يُجهز فيها على الجرحى؟ ولا تسلب الممتلكات؟ ولا تسبى النساء؟، وأي حرب يتداخل فيها الجيشان ويستقون ويشربون آمنين مطمئنين من ماء واحد؟، وأي حرب يمتزج فيها الجيشان ليحمل كل جيش جرحاه دون أن يخشوا على أنفسهم؟ ومتى سمعت عن حرب يبكي المشاركون فيها قتلى الطرف الآخر؟ والشواهد كثيرة جدا، ويكفينا بكاء علي على طلحة والزبير، وبكاء معاوية وحزنه على علي رضي الله عنه وعن جميع أصحاب نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت نهاية الفتنة والحرب بمشهد يحمل في طياته كل عناصر الحب والمودة، وهو تسليم الحسن الخلافة طائعا راضيا مختارا ومبايعته وأخيه الحسين لأخيهم معاوية رضي الله عنهم أجمعين وهذه كلها ظواهر تدلل على حال باطنهم وهي مصداق قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

من أم دعت بالهلاك على أولادها، والحب بين كل هؤلاء موجود، ولكن قد يطرأ على المرء ما يقدح ظاهرا بهذا الحب، وما إن يتأذى الأخ أو الابن أو الصديق، حتى يرق له القلب وتدمع عليه العين وهذا واقع مشاهد لا ينكره إنسان، فكيف تَرُد آيات محكمات بظاهر لم تَطّلع على باطنه؟ وقد شهد رب العزة على سلامة الباطن والألفة والمحبة.

فكل سليم عقل وفكر سيقدم قول اللّه تعالى على غيره حتى وإن أنبأته عيناه بما يخالف الآية في الظاهر.

فكيف إذا كان الحال هو السماع فقط وعدم المشاهدة؟ فلنفترض أن كتب التاريخ كلها قد خالفت كتاب اللّه تعالى، فأثبتت هذه الكتب العداوة بين صحابة رسول اللّه ﷺ، فهل نقدم كتب التاريخ هذه، أم كتاب اللّه تعالى؟

فكيف إذن والحال أن كتب التاريخ متباينة في نقولها، فمنهم من ينقل ما وافق كتاب اللّه تعالى -وهم الأكثر والأوثق-، ومنهم ما ينقل ما يخالف كتاب اللّه تعالى- وهم قلة مجروحون-، فكيف تقدم نقل الضعفاء على الثقات؟ وهل يفعله عاقل؟

وأخيراً أقول: اتبع دائما الآمن والأسلم وأعد العدة لسؤال الجبار سبحانه.

فأنت إن صدقت قول اللّه تعالى في الألفة بين الصحابة ورضاه عنهم واعتقدت بذلك، ووقفت أمام الجليل سبحانه وسألك: يا عبدي لماذا اعتقدت فيهم خيرا؟ ستقول: يا رب قرأت كتابك وآمنت بما فيه، فإن قال لك سبحانه: ألم تسمع وتقرأ روايات تدلل على خلاف هذا،

فستقول: يا رب سمعت وعلمت ولكني قدمت قولك على قول غيرك فإنك سبحانك أصدق القائلين.

فأمرك هنا دائر بين كونك مصيبا مأجورا، أو مخطئا معذورا وفي الحالين أنت ناج من عذابه ونقمته سبحانه بإذنه.

ولو كنت -أعاذني اللَّه وإياك- ممن أخذ بالروايات التي تناقض قوله سبحانه ووقفت يوم القيامة وسئلت -وإنك واللَّه لمسؤول-: يا عبدي لماذا اعتقدت أن صحابة رسولي متباغضون متعادون، فستقول: يا رب لقد سمعت وقرأت روايات تثبت ذلك، فإذا سألك الجبار سبحانه: ألم تسمع قولي وثنائي وإثباتي للرحمة والمودة والألفة بينهم؟ كيف تقدم قول غيري على قولي؟

فماذا ستجيب الجبار، وكيف ستنقذ نفسك من سطوة العزيز القهار؟

فأمرك دائر بين كونك مصيبا مأجورا - وهو بعيد إذ لا إصابة في مخالفة كتاب اللَّه- أو كونك هالكا مثبورا أعاذنا اللَّه تعالى وإياك من الخذلان.

وعلى هذا فقس كل أمر يحيرك ويضنيك، واختر الأسلم لك والأحوط لدينك.

❋ ❋ ❋

اجتهد في إعمال فكرك

يتوجب على طالب الحق أن يُعمل فكره في حاله وحال قومه، وينظر في أقوالهم، وأفعالهم، وأحوالهم، وهل فيها امتثالٌ وتحقيق لما أمرنا به اللَّه تعالى في كتابه؟ وهل ينطبق عليهم ما وصف اللَّه تعالى به عباده؟

وذلك أن كثيرا من الناس يتبع المبدأ القائل:

«إن ما عرفته وخبرته هو خير لك مما لم تعرفه».

وهذا المبدأ وإن كان مفيدا في أحوال ولكنه ليس هكذا في باب العقائد، وكلُّ شيء يسعك أن تخاطر به إلا عقيدتك، فلا تتركها عرضة لأمثال وأفكار قد تصيب وقد تخطئ، واقصد البحر والمنبع والتزم بما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو كتاب اللَّه ففيه واللَّه الهدى والنجاة.

ويجب على المرء أن «يستحضر أن الذي يهمه ويسأل عنه هو حاله في نفسه، فلا يضره عند اللَّه تعالى -و لا عند أهل العلم و الدين و العقل- أن يكون معلمُه أو مربيه أو أسلافه أو أشياخه على نقص، وأفضل هذه الأمة أصحاب رسول اللَّه ﷺ؛ كان آباؤهم و أسلافهم مشركين.

هذا مع احتمال أن يكون أسلافك معذورين إذ لم ينبهوا ولم تقم عليهم الحجة. وعلى فرض أن أسلافك كانوا على خطأ يؤاخذون به فاتباعك لهم وتعصبك لا ينفعهم شيئاً بل يضرهم ضرراً شديداً؛ فإنه يلحقهم مثل إثمك، ومثل إثم من يتبعك من أولادك و أتباعك إلى يوم القيامة. كما يلحقك مع

إثمك مثل إثم من يتبعك إلى يوم القيامة. أفلا ترى أن رجوعك إلى الحق هو خير لأسلافك على كل حال؟»[١].

وعندما نقول انظر إلى قومك فإننا نعني العلماء لا العامة. فالعلماء عنوان الدين، وهمُ المعيارُ والمقياس، وأقوالهم هي الحَكَم، ولا نحاكم عقيدة أو فرقة بأقوال عامتها. ولو تأملنا قَصَص الأنبياء في كتاب اللَّه لوجدناهم جميعا قد جوبهوا بعقبة حالت دون استجابة أقوامهم لهم ولدعوتهم، وهذه العقبةُ هي جمودُهم وتقليدهم لآبائهم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقد عاب اللَّه تعالى عليهم هذا التقليد والجمود، ولم يرخص لهم فيه، وأنكر عليهم بقوله سبحانه: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

فانظر إلى ما أنت عليه وإلى حال قومك، وتفكر واعرض ما هم فيه على كتاب اللَّه عز وجل، وقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «من أخذ دينه من كتاب اللَّه وسنة نبيه صلوات اللَّه عليه وآله زالت الجبال قبل أن يزول. ومن أخذ دينه من أفواه الرجال ردته الرجال[٢]»[٣].

فإن وافق كلام الرجال كتاب اللَّه فخذ به ولا تبال، وأما إن خالفه فابحث عن أهل الحق وكن معهم تنجُ، وكي تنجح في مسعاك، وتنال مرادك فلا بد

---

(١) التنكيل للمعلمي رحمه الله (٢/١٩٩) بتصرف.
(٢) أي: ردته أقوال رجال آخرين.
(٣) الفصول المهمة للحر العاملي (١/١٢٦).

من أن تلتزم بما ذكرناه من الاعتصام باللَّه والتوكل عليه فكم من ذكي تاه في بحور المعصية والضلالة وذلك أنه أعمل فكره ووثق بعقله ولم يسأل اللَّه التوفيق والسداد، وقد سُئل أحدهم: ما الشيء الذي لا يستغنى عنه؟فقال: التوفيق، قيل له: ولمَ لم تقل العقل؟قال: العقل بما هو عقل لا يجدي عاجلًا وآجلًا دون التوفيق الذي به يهتدى إلى ثمرة العقل وينال درجة الانتفاع به.

ولا بد هنا من بيان أمر مهم، وهو أن العقل البشري مهما اجتهد فله حدود ليس بمقدوره أن يتخطاها، فلذلك ينبغي أن يكون إعماله مضبوطا بضوابط الشرع لا معزولا عنها. وهذا أمر واضح للعيان، والشواهد النقلية والعقلية على ذلك كثيرة، ولكنا وجدنا من اعترض على الكلام السابق مع وضوحه وجلائه، وسعى لدعم اعتراضه بسرد الآيات الكثيرة التي حث اللَّه تعالى فيها عباده على إعمال عقولهم للوصول إلى الحق وحاول الإيهام بأن دعوة إعمال العقل هي دعوة مطلقة ولا تقيد بوجه من الوجوه.

فأقول مستعينا باللَّه: من زعم أن اللَّه تعالى أطلق للعقل الحرية ولم يقيد هذا بقيود في كل مسائل الشريعة، فقد جانب الصواب وحاد عن الجادة؛ إذ أن اللَّه تعالى قد أطلق الحرية للعقل في مواطن معينة وقيدها في أخرى، وإطلاق العنان للعقل إنما هو للاستدلال على وجود خالق واحد فرد صمد، وما يترتب على هذا من استحقاق الخالق للطاعة والعبادة، ونجد هذا في كتاب اللَّه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ

ﭐلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وفي غيرها من الآيات التي تحث على النظر والتدبر في الكون، فكل ما فيه دال على وجود رب خالق قادر.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

أما معرفة الأحكام وتفاصيلها، فالعقل ليس بقادر على الوصول إليها من خلال التدبر في خلق اللَّه، فكيفية عبادة هذا الخالق لا يمكن معرفتها إلا عن طريق الإخبار، وكذلك الحال مع سائر الغيبيات. وانظر إلى قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، فجميع الأنبياء جاؤوا وبينوا للناس كيفية عبادة هذا الخالق، وبعد معرفة استحقاق الرب تعالى للطاعة والعبادة، وأنه لم يخلق هذا الخلق عبثا ولن يتركه سدًى، وإنما خلقه لحكمة، وأناط به مهمة، وهي إفراد هذا الرب بالطاعة عن طريق امتثال أوامره وأحكامه، اصطفى اللَّه تعالى أفرادا من جلدتنا ليبلغونا هذه الأحكام وأيدهم بالمعجزات كي تتيقن العقول من صدقهم، ويستجيب الناس إليهم، ويُعملوا أفكارهم في ضوء هذه الرسائل السماوية. ولذلك كانت هذه الرسائل والكتب بلغة يفهمونها؛ ليتمكنوا من إعمال عقولهم وفق نصوصها. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

ولا بد أن يتوقف العقل عند هذه النصوص فلا يتجاوزها أو يتعداها ليخترع عبادات قياسا على ما شرعه اللَّه تعالى، ومن سلك هذا المسلك

فقد طعن برسول اللَّه ﷺ واتهمه بالتقصير في تبليغ هذا الدين. قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «من ابتدع في الاسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم ان محمدا خان الرسالة، لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً»[١].

وأختم هذه النقطة بكلام نفيس حول قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

«فهذا نص صريح في أن هدى الرسول ﷺ إنما يحصل بالوحي، فيا عجبا! كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة؟! ولكن﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾، فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأي فلتان ؟ وقول زيد وعمرو. ولقد عظمت نعمة اللَّه على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى. والحمد للَّه رب العالمين»[٢].

ولكي تأمن وتسلم، وتنتفع من النظر والتفكر، لا بد لك من التسلح بالأدوات التي تمكنك من الحكم على الدليل وصلاحيته للاستدلال؛ وذلك كي تعصم نفسك من الوقوع في براثن المدعين. وهذا ما سنتطرق إليه في نقطتنا التالية.

***

(١) الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٩).
(٢) الرسالة التبوكية ص (٤٥).

استدل ثم اعتقد[(١)]

الدليلُ لغة هو المرشد إلى المطلوب.

أما اصطلاحا فله تعريفاتٌ كثيرةٌ تدور كلُّها حول معنًى واحد، وهو ما أمكن أن يتوصل من خلال النظر الصحيح فيه إلى معرفة المطلوب[(٢)].

ولا يمكن أن يعتقد الإنسان عقيدة وليس له فيها دليل نقلي صحيح صريح لا يقبل التأويل خاصة إن كانت هذه العقيدة من أصول الدين التي لا يُعذَر مسلم بتركها. وقد وقع كثير من الناس في المحظور بسبب اعتقادهم عقائد ليس لها دليل واضح، وصاروا يحاربون كل من لم يعتقد هذه العقيدة المفتقرة للدليل! فلم يكتفوا بإهلاك أنفسهم بل وسعوا لإهلاك الآخرين، وهذا دَأب أهل الباطل﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩].

ويحكى في كتب الأمثال أنه قيل لأقرع: ما كنت تتمنى قال: أن يكون الناس قرعاً حتى أنظر إليهم بالعين التي ينظرون إليّ[(٣)]، فنسأل اللَّه العفو والعافية.

وقد ذكرنا آنفا أن العقل ليس بحجة في إثبات أصول الدين إذا كان بمعزل

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر (المنهج القرآني الفاصل بين أصول الحق وأصول الباطل) جزى اللَّه تعالى مؤلفه خير الجزاء.

(٢) إرشاد الفحول (١ / ٢٢).

(٣) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (ص ٩٣).

عن الوحي المبين، والعقل يكون إعماله وفقا لنصوص الوحي، فلا يمكن أبدا أن تكون العقول البشرية المختلفة في قدراتها الاستيعابية هي الموكلة بتقرير هذه الأصول، فالبشر فيهم الذكي والغبي، والفطن والبليد، فما يقرره عقل ويعده أصلا يراه الآخر فرعا، بل قد يراه لا يستحق الاهتمام، ولا يمكن أن يكون دينُ اللَّه معقودا على عقول بعض الأفراد.

ولا يختلف اثنان على أن كتاب اللَّه عز وجل هو المصدر الذي نستقي منه أصولَ الدين، وقد روي عن جعفر الصادق أنه قال: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب اللَّه عز وجل، ولكن لا تبلغه عقول الرجال»[1]، وكل ما خلا منه كتاب اللَّه فليس بأصل، وقد روي عن جعفر الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «إن اللَّه تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى واللَّه ما ترك اللَّه شيئا يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد يقول: لو كان هذا أنزل في القرآن ؟ إلا وقد أنزله اللَّه فيه»[2].

وعنه أيضاً: «كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب اللَّه فهو زخرف»[3].

ومن الأدلة على هذا قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فهل يمكن أن يكون كتاب اللَّه تعالى خاليا من أصل اعتقادي لا يعذر المسلم بتركه ثم يصف اللَّه عز وجل كتابه بهذا الوصف؟

---

(١) الكافي للكليني (١/ ٦٠).
(٢) الكافي للكليني (١/ ٥٩).
(٣) الكافي للكليني (١/ ٦٩).

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فهل يمكن أن يكون كتاب اللَّه تبيانا لكل شيء ويغفل عن تبيان أصل من أصول الاعتقاد؟

وهل يمكن أن يكون هدى ورحمة ولم يوضح اللَّه تعالى لنا فيه أصول الدين؟

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

كيف يكون هدى للمتقين وهو لا يدلهم على أصول دينهم بشكل واضح لا لبس فيه؟

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

كيف يكون نذيرا للعالمين ولم ينذرهم ويحذرهم من ترك أصل من أصول الاعتقاد؟

والأدلة كثيرة، ونكتفي بما أوردناه وفيه كفاية لطالب الحق بإذن اللَّه.

وقد يتبادر سؤال إلى الذهن، وهو ما فائدة السنة؟ فإن كانت الأصول في كتاب اللَّه فهل يعني هذا استغناءنا عن سنة رسول اللَّه ﷺ؟

وهذا -بالتأكيد- ليس مقصودنا ونعوذ باللَّه من هذا الفهم والقصد وقد حذر منه رسول اللَّه ﷺ، وليس هناك من هو أعلم بالقرآن من رسول اللَّه ﷺ، وقد قال رجل لمطرف بن عبد اللَّه بن الشخير: لا

تحدثونا إلا بالقرآن، فقال له مطرف: واللَّه ما نريد بالقرآن بدلا، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا[١]، وقد قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب[٢].

بل اللَّه جل وعلا يأمرنا في كتابه باتباع رسولنا ﷺ فيقول سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، والجمع بين الأمر باتباع النبي ﷺ وبين ما ذكرناه عن وجود أصول الدين في كتاب اللَّه هين يسير بإذن اللَّه.

فأقول: اللَّه جل جلاله أرسل الرسل لإتمام الحجة على خلقه، ووجود الأصول في كتاب اللَّه وحده قد يعسّر إمكانية تعيينها على سبيل القطع، فاقتضى ذلك أن يأمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ بتعليمها للأمة بشكل قاطع يقيني لا لبس فيه، كي لا يشك شاك أو تبقى لأحدهم حجة يحتج بها على اللَّه سبحانه، فالأصول كما سبق وذكرنا موجودة في كتاب اللَّه بنصوص قطعية الدلالة وذكرها نبينا ﷺ أيضا بنصوص قطعية الدلالة كما في حديث جبريل المشهور[٣] .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٣٦٨).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٣٦٨)

(٣) والحديث أخرجه مسلم في صحيحه وفيه أن جبريل اتى النبي ﷺ وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه و سلم وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، قال: صدقت قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه قال: فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. . . إلى قوله ﷺ: هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.

كما أن السنة تفصل ما أجمل في كتاب اللّه تعالى ولا يستقيم الإيمان إلا بالأخذ بها مع كتاب اللَّه وهو معنى قول رسول اللَّه ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[١].

ولكن لا يمكن أن تنفرد السنة بأصل ليس موجودا ومقررا في كتاب اللَّه بشكل يستحيل أن يلتبس فيه الأمر على مسلم. أما الفروع وغيرها مما ينبني على الأصول فقد تستقل به السنة، ومع استقلالها به فإنه ولا بد مندرج تحت أصل عام في كتاب اللَّه، كما قال الشافعي رحمه الله: «فليست تنزل بأحد من أهل دين اللَّه نازلة إلا وفي كتاب اللَّه الدليل على سبيل الهدى فيها»[٢]، وقال أيضاً: «وأن سنته تبع لكتاب اللَّه فيما أُنزل، وأنها لا تخالف كتاب اللَّه أبدا»[٣].

وتبقى شبهة قد يتمسك بها من يريد نقض التأصيل السابق وهو احتجاجه بقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ويزعم أن وجود الأصل في السنة يعني وجوده في كتاب اللَّه بناء على هذه الآية.

وفي واقع الأمر إنها محاولة للفرار من انعدام وجود مدّعاه في كتاب اللَّه، إذ وجود الأصل في السنة لا يمكن أن يعني الاستغناء عن الحاجة إلى وجوده في كتاب اللَّه، والأصل الذي دلت عليه الآية الكريمة هو ضرورة اتباع رسول اللَّه ﷺ وهذا حق لا لبس فيه، ولكن هل يعني هذا أن كل ما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد رحمه الله في المسند ح(١٧١٧٤)، وصحح الشيخ شعيب الأرناؤوط إسناده.

(٢) الرسالة ص(١٥).

(٣) الرسالة ص(١٣٠).

ورد في السنة هو أصل؟ وهل يمكن لإنسان أن يأتي ويقول بأن تقليم الأظافر ونتف الإبط -وقد وردا في السنة- أصول للدين وحجته هي الآية السابقة؟! هذا قطعا لا يمكن أن يقوله عاقل، والترتيب المنطقي لكل من يسعى لإثبات أصول الدين هو إثباتها من قول اللَّه تعالى ثم من سنة رسول اللَّه ﷺ وبشكل قطعي يقيني منهما.

كما أن هناك إشكالا يرد على أصحاب هذا القول وهو النزاع في ثبوت الأصول، فالسنة كما يعلم الجميع قد يمكن للإنسان أن ينازع في ثبوتها فيدعي ضعف إسناد الحديث المستدل به أو ما شابه، واللَّه سبحانه لا يترك أصول الدين وركائزه عرضة للنزاع في ثبوتها وهو فرع عن كمال الحجة وتمامها وهذا مقرر لدى أرباب العقول.

وليُعلم أن لتقرير أصول الاعتقاد في كتاب اللَّه منهجاً واضحاً لا يحيد عنه، ولا يترك هذا المنهج لدى المتلقي شكاً بهذه الأصول. وهذا المنهج متمثل بأربع خطوات[1] يمكن معرفتها عن طريق استقراء كتاب اللَّه تعالى، وهي:

١- الإخبار: فيخبر اللَّه تعالى عن هذا الأصل في الكتاب ولا يمكن أن نؤمر بالإيمان بأصل ليس موجودا في كتاب اللَّه، وكما أسلفت كل ما خلا منه كتاب اللَّه فليس بأصل.

ومثاله أن اللَّه تعالى يخبر عن وحدانيته فيقول سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ

(١) انظر كتاب (المنهج القرآني الفاصل بين أصول الحق وأصول الباطل)؛ فقد بيَّن مؤلفه هذه الخطوات، وفصَّل فيها، ودلَّل عليها بما لا مزيد عليه، فجزاه اللَّه تعالى عنا خيراً.

﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

٢- التكرار: فلا بد وأن يتكرر هذا الأصل بحيث لا يمكن لأحد أن يدعي جهله وعدم العلم به، ولو نظرنا في كتاب اللَّه جل وعلا لوجدنا أن لفظ الجلالة (اللَّه) قد تكرر ألفا وسبعمائة وخمسا وأربعين مرة، ولو نظرنا إلى لفظة (يؤمن باللَّه) نراها تكررت أربع عشرة مرة، ولفظة (آمنوا باللَّه) كذلك تكررت أربع عشرة مرة، وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تكررت سبع عشرة مرة ومن أراد أن يحصي هذه الألفاظ وشبيهها فسيعجز عن ذلك.

٣- الإثبات: أما الأصول الاعتقادية (أركان الإيمان) فإن اللَّه سبحانه قد أقام عليها أدلة وأثبتها بشكل لا يترك فيها حجة للناس، وعدم فهم هذا الأصل مرده إلى اتباع الهوى وإغفال منهج التأصيل وقد أقام اللَّه تعالى الدلائل العقلية القاطعة على الأصول التي طالب الناس بالإيمان بها فمثلا من الدلائل العقلية على وحدانيته سبحانه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، أما الأصول العملية (أركان الإسلام) كالصلاة والزكاة فلا تحتاج إلى الإثبات فإنما هي أمر يلزم طاعته ولا إثبات فيه.

٤- الوضوح والقطع: فلا بد وأن يكون الأصل مبنيا على نص قطعي الدلالة واضح لا يقبل التأويل وإلا لما كان كتاب اللَّه حجة على الناس فكيف يمكن أن يطالب الناس بالإيمان بأصول مبهمة وغير واضحة؟ ولا يمكن أن يترتب الخروج عن الملة على أصل يفتقر للوضوح. وكل

الأمثلة التي ذكرناها في النقاط الثلاث ينطبق عليها الوضوح والقطع.

ولكنا سنذكر ركنا اعتقاديا آخر، وكذا ركنا عمليا كي نوضح المقصود بشكل أكبر.

أما الركن الاعتقادي فنختار الإيمان بالملائكة، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

فهنا لا يمكن أن يلتبس على مسلم أن المقصود بالملائكة صنف من مخلوقات اللَّه تعالى يختلفون عنا هيئة؛ فلهم أجنحة تتفاوت في عددها، وأن اللَّه تعالى أكرمهم بأن جعلهم رسلا إلى غيرهم من المخلوقات.

وأما مثال الركن العملي فقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فلا يمكن أن يختلف اثنان أن المقصود من الصلاة هنا ركن عملي أمر الإنسان بالمحافظة عليه وله أوقات مختلفة، وجاءت السنة موضحة لهذا الركن وكيفية أدائه وتحديد أوقاته.

فهذه أدلة على المقصود لا يمكن ان تؤول بأمر آخر، وقد آمنا بها بعد أن قام الدليل عليها بشكل واضح من كتاب اللَّه.

وأما من يَدَّعي أصلا، ويوجب على المسلمين اعتقاده، ويرتب عليه كفر من لم يعتقده، وخلوده في النار فلا أقل من أن يدلّل على هذا الأصل بآية

واحدة تثبت دعواه بما لا يدع مجالا للشك، فإن عجز عن ذلك فقد افترى على نفسه وظلمها بأن أوجب عليها ما لم يوجبه اللَّه تعالى. بل وافترى على اللَّه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٥٠]، وقوله مردود عليه؛ فما هكذا تورد الإبل، وما هكذا أُمرنا، بل ديننا جلي واضح وللَّه الحمد، لا يرتاب فيه إلا زائغ، وسيتبين ذلك جليا في نقطتنا التالية.

* * *

استدل بالمحكم لا بالمتشابه

قال اللَّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

فيستفاد من هذه الآية أن اللَّه تعالى قد قسم آياته بمقتضى دلالتها النصية[١] إلى قسمين وهما:

المحكم: وهو الواضح البين القطعي، الذي لا يحتاج إلى قرينة من خارجه.

المتشابه: وهو ما يحتاج إلى قرينة يتضح بها المراد.

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما «المحكمات»، فإنهن اللواتي قد أحكمن بالبيان والتفصيل، وأُثبتت حججُهن وأدلتُهن على ما جُعلن أدلة عليه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأمر وزجر، وخبر ومَثَل، وعظة وعِبر، وما أشبه ذلك[٢].

---

(١) قلت إنها محكمة بمقتضى دلالتها وذلك لأن كتاب الله تعالى كله محكم وإنما يقع التشابه على الإنسان من سوء استدلاله، ونضرب لذلك مثالا بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فبالنسبة لمن يستدل بها على خيرية هذه الأمة بكاملها فالآية محكمة، أما من يستدل بها على خيرية بعض أفراد من الأمة ويخرج سائر الأمة من اتصافهم بالخيرية فاستدلاله بها يكون بالمتشابه.

(٢) تفسير الطبري (٦ / ١٧٠).

وقال الإمام البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: مبيَّنات مفصَّلات، سميت محكمات من الإحكام، كأنه أحكمها فمنع الخلق من التصرف فيها لظهورها ووضوح معناها[١].

وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وإنما المتشابه في هذه الآية من باب الاحتمال والاشتباه، من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ أي التبس علينا، أي يحتمل أنواعا كثيرة من البقر. والمراد بالمحكم ما في مقابلة هذا، وهو ما لا التباس فيه، ولا يحتمل إلا وجها واحدا[٢].

وفي التبيان للطوسي: «فالمحكم هو ما علم المراد بظاهره من غير قرينة تقترن إليه ولا دلالة تدل على المراد به لوضوحه. والمتشابه: مالا يعلم المراد بظاهره حتى يقترن به ما يدل على المراد منه»[٣].

وفي تفسير جوامع الجامع للطبرسي: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أحكمت عباراتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه، ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصل الكتاب، تحمل المتشابهات عليها وترد إليها، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ مشتبهات محتملات[٤].

وفي تفسير غريب القرآن للطريحي: «في المحكم أقوال للمفسرين والأصح منها على ما قيل: أن المحكم ما هو واضح قائم بنفسه لا يفتقر إلى استدلال كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة، والمتشابه: ما يقابله»[٥].

---

(١) تفسير البغوي (٢ / ٨).
(٢) تفسير القرطبي (٤ / ١٠).
(٣) تفسير التبيان للطوسي (٢ / ٣٩٤ - ٣٩٥).
(٤) تفسير جوامع الجامع للطبرسي (١ / ٢٦٥).
(٥) تفسير غريب القرآن للطريحي (ص ٤٩٥).

إذن فاللَّه جل جلاله يحذرنا في كتابه الكريم من اتباع المتشابه، ووصف اللَّه تعالى من يتبع هذا المتشابه بأنه زائغ القلب يبتغي الفتنة.

هذا في حال كانت الآية دالة على أحد المعاني التي يقصدها هذا الزائغ، فكيف لو لم تكن الآية تدل من قريب أو بعيد على هذا المعنى؟

ونحن -كما ذكرنا في أول هذا الكتيب- تركيزنا إنما ينصب على أصول الدين وواجبات الاعتقاد، التي افترقت الأمم بناء عليها إلى فرق وأقسام.

وقد أوضحنا سالفا ضرورة الاستدلال على المعتقد بالدليل النقلي، وأن العقل المجرد عن النص ليس بحجة في إثبات أصول الدين.

كما قدمنا أن أصول الدين لا بد وأن تكون موجودة في كتاب اللَّه، وكل ما ليس في كتاب اللَّه فليس بأصل، ودللنا على هذا بأدلة نقلية وعقلية تدلان بوضوح على هذا الأمر.

وبناء على ما سلف سنضرب بعض الأمثلة ونناقشها، ونجعل من هذه الطريقة منهجا نعرض عليه كل الأصول التي يدعيها أي طرف من الأطراف فنعرف المحق من المبطل.

إن أتى شخص وادعى أن استحقاق أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للخلافة بعد رسول اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أصل يتوجب علينا الاعتقادُ به وما لم نعتقد به، فإن اللَّه تعالى لن يقبل منا إيمانا ولا عملا، فنقول لهذا المدعي أنت جعلت خلافة الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أصلا للإيمان ولا ينفع عمل دون الاعتقاد به فأين دليلك على هذا من كتاب اللَّه؟

فقال الدليل قول اللَّه تعالى عنه: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي

ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، فما دام هو ثاني اثنين فهو بالتالي الخليفة بعد رسول اللَّه ﷺ إذ هو الثاني بعده.

فنجيبه قائلين: ما هكذا تورد الإبل، وليس بمثل هذا تؤصَّلُ الأصول، فدليلك يفتقر إلى شروط الدليل الأصولي فهو ليس بواضح وغير دال على المقصود، وذلك أن الآية ليس فيها ذكر لاسم أبي بكر رضي الله عنه، وليس فيها ذكر للخلافة بعد رسول اللَّه ﷺ فكيف تطالب الناس بالإيمان بأصل اعتقادي باستدلال أعرج كهذا؟ فإن أجاب بأن أبا بكر رضي الله عنه هو المقصود في هذه الآية فنقول: نعم ولكنا علمناه عن طريق أسباب النزول وليس من نص الآية، ولكي تكون خلافة أبي بكر أصلا يجب أن يكون ذكره واضحا في القرآن لا لبس فيه، كما أن قارئ الآية لا يفهم منها الخلافة إذ لا ذكر لها من قريب أو بعيد فدليلك بحاجة إلى دليل.

وقس على هذا، فلو افترضنا أن الأصل الواجب الإيمان به هو إبطال خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وإثبات خلافة عمر أو عثمان أوعلي رضي الله عنهم أو غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم واستدللنا على هذا بآية من كتاب اللَّه تعالى ولتكن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، أو قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فنقول ليس في الآيات ذكر لعمر أو عثمان أو علي رضي الله عنهم، وليس فيها ذكر للخلافة، وليس فيها أمر بوجوب اعتقاد خلافة أحدهم وليس فيها إبطال لخلافة غيرهم، ولولا أنك جهزت نفسك لهذا المعنى وحقنت نفسك به

قبل قراءة هذه الآيات لما تبادر لذهنك أن أحدهم هو المقصود وأن خلافته هي المقررة.

فإن قيل السنة بينت أن المقصود هو أحدهم وأنه هو المستحق للخلافة نقول إذاً لا دليل لك في الآية وإنما دليلك من خارجها، ودليلك يحتاج إلى دليل، فكيف تلزم الناس باعتقاد أصل بمثل هذه الأدلة غير المحكمة بمدلولها؟ وكيف تفرق بين الناس بناء على استدلالات كهذه؟

إيتنا بدليلك من كتاب اللَّه نصاً صريحاً واضحاً لا لبس فيه أو اعترف بأن لا حجة لك في كتاب اللَّه ولا دليل لك منه، وأن استدلالك ما هو إلا استدلال بالمتشابه فينطبق عليك قول المصطفى ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى اللَّه فاحذروهم»[1].

وأختم هذه النقطة بكلام نفيس ذكره الإمام القرطبي في تفسيره، وذلك في معرض كلامه عن النهي عن تفسير القرآن بالرأي فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما النهي يحمل على أحد وجهين: أحدهما أن يكون له في الشئ رأي، وإليه ميل من طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى.

وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، وهو يعلم ان ليس المراد بالآية ذلك، ولكن مقصوده أن يلبس على خصمه، وتارة يكون مع الجهل، وذلك إذا كانت الآية محتملة

(١) صحيح البخاري كتاب (التفسير) باب (سورة آل عمران) ح(٤٥٤٧).

فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسر برأيه، أي رأيه حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه»[١].

❋ ❋ ❋

(١) تفسير القرطبي (١ / ٣٣).

السياق من المقيدات

لقد شاء اللَّه سبحانه أن يكون الهدى باديا ساطعا كالشمس لا يغيب أبدا، فلذلك لا يمكن أن يكون للباطل دليل كامل سليم من الضعف بل لابد وأن يكون في ذات الدليل وبين جنباته ما يظهر بطلان الاستدلال به، جهله من جهله وعلمه من علمه وكما قال أهل العلم: «ما من دليل استدل به على باطل إلا وكان في الدليل نفسه ما ينقض استدلاله به».

لذلك فإن أبرز وأهم السبل المعينة على معرفة صحة الاستدلال بالدليل أو عدمها، النظر إلى السياق الذي ورد به الدليل، ويظهر هذا جليا في كتاب اللَّه وهو بحق آية من آيات إعجازه، فما من آية يستدل بها صاحب بدعة إلا وفيها ما ينقض استدلاله، ولذلك كان من علامات الانحراف إخراج الآية عن سياقها، أو اقتطاع جزء من الآية والاستدلال به مع إغفال تتمة الآية التي توضح المعنى وغالبا ما يكون فيها بيان خطأ المستدل وانحرافه عن الحق.

وأوضح الأمثلة على فساد الاستدلال بجزء مبتور من آية وإغفال تتمتها هو الاستدلال بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وعزله عن باقي الآية فينقلب وجوب الصلاة إلى تحريم! بينما لو أُكملت الآية لعُرف أن النهي عن مقاربة الصلاة كان حال السكر والجنابة﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ﴾ [النساء: ٤٣].

وقد اعتبر المصطفى ﷺ أن من أعظم الأخطار على الأمة أن تبتلى بمن

يتبع هذا الأسلوب والمنهج فقد قال ﷺ : «أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان يجادل بالقرآن»[١].

وقال أيضاً ﷺ : «إنما أخاف على أمتي الكتاب واللبن قيل: يا رسول اللّه، ما بال الكتاب ؟ قال: يتعلمه المنافقون ثم يجادلون به الذين آمنوا فقيل: وما بال اللبن ؟ قال: أناس يحبون اللبن، فيخرجون من الجماعات ويتركون الجمعات»[٢].

وقد رأى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن هدم الدين يكون بثلاثة وهي: «زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين»[٣].

ولنا أن نسأل: لماذا هذا التشديد في بيان خطورة جدال المنافق بالقرآن؟

والجواب أن مكمن الخطورة في جدال المنافق بكتاب اللّه أنه يصبغ على ضلاله صبغة شرعية قد يغوي بها الجهلة والبسطاء فإنه إذا جمع عذوبة لسان ودهاء ثعلب وخبث منافق مع سمت وهيئة عالم، حصل على تركيبة يمكن أن يغوي بها عددا كبيرا من الخلق أعاذنا اللّه من الفتن، وليس في قلب المنافق ورع أو تقوى يردعه عن الاستمرار في هذا الإغواء وإن كان يعلم في قرارة نفسه مدى فساد قوله، ورضي اللّه تعالى عن قيس بن سعد بن عبادة الذي كان يقول: «لولا الإسلام لمكرت مكراً لا تطيقه العرب»[٤]،

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر رحمه الله (٢ / ١٢٠٠) ح(٢٣٦٠) وقد صححه محقق الكتاب الشيخ أبو الأشبال الزهيري، وأصل الحديث في المسند ح(٣١٠) دون زيادة «يجادل بالقرآن» وقال عنه الشيخ شعيب إسناده قوي.

(٢) مسند أحمد (٢٨/ ٥٥٦) ح(١٧٣١٨) وقد حسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٣) سنن الدارمي (١ / ٨٢) وقد صحح الشيخ حسين سليم أسد إسناده.

(٤) سير أعلام النبلاء (٣ / ١٠٨).

فالذي حجزه عن هذا المكر تقواه وورعه وخوفه من اللَّه عز وجل، أما إن ابتلينا بمنافق داهية فهذا من أشد البلاء.

وما ذكرناه من قطع الآية وبتر جزء منها عن باقي الأجزاء التي توضح المعنى هو إحدى طرق الغواية التي يستخدمها المجادل بكتاب اللَّه، وهناك طريقة أخرى وهي الاستدلال بالآية وغض الطرف عن الآيات الأخرى وعدم الاعتداد بها، ومكمن الخطورة في هذا الفعل أن القرآن مفسر لبعضه البعض فما أُجمل في موضع قد فُصل في موضع آخر، وما أُبهم في مكان بُيّن في آخر فلذلك يحمل المتشابه على المحكم والمجمل على المبين والمطلق على المقيد وهكذا دواليك فالاستدلال بآية واحدة ورد باقي الآيات يؤسس مفاهيما مغلوطة مشوهة لا تمت لديننا بصلة.

وسنضرب مثالا على هذا النوع ثم نسرد بعض الفتن التي وقع الناس فيها وارتكبوا كبائر الآثام بناء على هذه الطريقة من الاستدلال.

قال اللَّه سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

فماذا تجيب من استدل بهذه الآية على صحة دين اليهود والنصارى والصابئين وحجته أن اللَّه تعالى قد صرّح أن المنتمين إلى هذه الملل إن آمنوا باللَّه واليوم الآخر لهم الأجر ولا خوف عليهم؟

إن توقفت عند هذه الآية وأعرضت عن باقي آيات القرآن فلن تستطيع أن تجيبه ولا يمكنك إلا أن توافقه على استدلاله، أما إذا اتبعت المنهج الصحيح وتتبعت الآيات في كتاب اللَّه فستجد الرد الصحيح والمدعم بآيات صريحة

قطعية محكمة لا تقبل الشك كقوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

قوله جل شأنه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨].

قوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وغيرها من الآيات.

فإذا جمعت الآيات خرجت بمعنى صحيح للآية وهو أن الناجين من اليهود والنصارى والصابئين[1] هم الذين آمنوا بشريعة نبيهم في زمنهم فيكون «إيمان اليهود: أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى، حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى - فلم يدعها ولم يتبع عيسى - كان هالكا. وإيمان النصارى: أنه من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنا مقبولا منه، حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتبع محمدا ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى

(١) الصابئون: اختلف المفسرون في تحديد من هم «الصابئون» والأقرب أنهم موحدون ولكن ليس لهم نبي ولم تبلغهم دعوة نبي فإذا بلغتهم دعوة نبي لزمهم الانقياد وإلا كانوا هالكين.

والإنجيل - كان هالكا»[١].

والآن مع بعض الأمثلة لفتن وملاحم جرت كان سببها الاستدلال القاصر:

إن من أعظم هذه الفتن وأشدها فتنة الخوارج، وهم فئة كانت تقاتل مع علي رضي الله عنه في صفين ولكنهم خرجوا عليه واستباحوا دمه ودم معاوية وعمرو رضي الله عنهم بل واستباحوا دماء وأموال ونساء من خالفهم من المسلمين ووقعوا في الذنوب والآثام مع أنهم كانوا من أكثر الناس عبادة وتلاوة لكتاب اللَّه، ولكنهم كما قال عنهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم»[٢]، فزلوا ووقعوا في المحظور بناء على استدلالهم القاصر بقول اللَّه تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فقالوا: لا حكم إلا للَّه[٣]، ولم ينظروا إلى باقي الأدلة الشرعية، ونجحوا في قتل رابع الخلفاء وأبي السبطين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وياله من خسران مبين فالشخص الذي استباحوا دمه ورموه بالكفر له من الفضائل ما تنوء به الجبال ويكفيه فخرا الآيات التي نزلت في شأنه وإخوانه من المهاجرين والأنصار، وكذا بشارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم له بالجنة ومصاهرته له وجهاده وبذله وعطاءه فما قام الإسلام إلا على أكتاف صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما لهج مسلم بلا إله إلا اللَّه شرقا ولا غربا إلا بفضلهم بعد اللَّه تعالى، والخوارج تناسوا كل هذه الفضائل وجميع هذه الأدلة وتعلقوا بآية واحدة.

---

(١) تفسير الطبري (٢ / ١٥٤).

(٢) صحيح البخاري كتاب (فضائل القرآن) باب (إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر) ح (٥٠٥٨).

(٣) خصائص علي رضي الله عنه للنسائي (ص١٩٩).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ مبيناً كيفية التعامل مع كتاب اللّه وموضحاً الخلل الذي وقع فيه الخوارج: «فكما لا يجوز حمل كلماته - أي القرآن - على خصوصيات جزئية؛ لأن ذلك يبطل مراد اللّه، كذلك لا يجوز تعميم ما قصد منه الخصوص ولا إطلاق ما قصد منه التقييد؛ لأن ذلك قد يفضي إلى التخليط في المراد أو إلى إبطاله من أصله، وقد اغتر بعض الفرق بذلك. قال ابن سيرين في الخوارج: إنهم عمدوا إلى آيات الوعيد النازلة في المشركين فوضعوها على المسلمين فجاءوا ببدعة القول بالتكفير بالذنب»[1].

وعندما ناظر عبد اللّه بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخوارج واجههم بالمنهج السليم للاستدلال فقال لهم: «أما قولكم حكّم الرجال في أمر اللّه فإني أقرأ عليكم في كتاب اللّه أن قد صير اللّه حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم فأمر اللّه تبارك وتعالى أن يحكموا فيه أرأيت قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: ٩٥]، وكان من حكم اللّه انه صيره إلى رجال يحكمون فيه ولو شاء يحكم فيه فجاز من حكم الرجال أنشدكم باللّه أحكم الرجال في صلاح ذات البين وحقن دمائهم أفضل أو في أرنب قالوا بلى هذا أفضل، وفي المرأة وزوجها: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] فنشدتكم باللّه حكم الرجال في صلاح ذات بينهم وحقن دمائهم أفضل من حكمهم في بضع امرأة خرجت من هذه قالوا: نعم»[2].

---

(١) التحرير والتنوير (١ / ٤٨).
(٢) خصائص علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنسائي (ص ١٩٩-٢٠٠).

وبعد هذه المناظرة رجع منهم ألفان واستمر الباقون في غيهم وقام أشقى القوم عبد الرحمن بن ملجم بقتل علي رضي الله عنه وهو يعتقد أن استباحته لدم أبي السبطين عليهم السلام من أقرب القربات!

ومثال آخر وهو تجرؤ بعض الغوغاء على محاربة الحسين سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كربلاء فتقدم رجل منهم يقال له ابن حوزة فقال: أفيكم الحسين؟ فلم يجبه أحد، فقالها ثلاثاً، فقالوا: نعم، فما حاجتك؟ قال: يا حسين أبشر بالنار! قال له: كذبت بل أقدم على رب رحيم وشفيع مطاع، فمن أنت؟ قال: ابن حوزة، فرفع الحسين رضي الله عنه يديه فقال: اللَّهم حزه إلى النار! فغضب ابن حوزة فأقحم فرسه في نهر بينهما فتعلقت قدمه بالركاب وجالت به الفرس فسقط عنها فانقطعت فخذه وساقه وقدمه وبقي جنبه الآخر متعلقاً بالركاب يضرب به كل حجر وشجر حتى مات[(١)].

فانظر كيف جزم هذا الشخص بدخول الحسين رضي الله عنه النار، وما هذا إلا تأولا لبعض الأحاديث ولم يقابل النصوص التي بنى عليها حكمه بغيرها من النصوص ومن أهمها وأوضحها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للحسن والحسين: «سيدا شباب أهل الجنة»[(٢)].

والمثال الأخير الذي نختم به نقطتنا هو التعدي السافر على نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وزوجاته، بل التعدي على اللَّه جل في علاه والاعتراض على حكمه وذلك عندما يقتطع قول اللَّه سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ

(١) الكامل في التاريخ (٤ / ٦٦)
(٢) سنن الترمذي (٥/ ٦٥٦) ح (٣٧٦٨) وقال عنه الترمذي رحمه الله هذا حديث حسن صحيح.

﴿ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ عن السياق الذي نزل فيه[١] ويستشهد بحديث الكساء[٢] على أن أهل البيت هم علي وفاطمة والحسن والحسن فقط دون غيرهم، ويخرج زوجات النبي ﷺ من ذلك مع أن الواضح من كتاب اللَّه بل ومن الآية ذاتها أن أهل البيت هم الزوجات وعرفنا دخول غيرهم في هذا المسمى بناء على حديث الكساء فانظر كيف تُقلب الحقائق وتبدل! هداني اللَّه وإياك والمسلمين إلى ما يحب ويرضى.

وبعد أن عرفنا ما سبق ننتقل إلى نقطة يعدُّ فهمها ومعرفتها وقاية وسدا لكثير من الأبواب التي يمكن أن يلج من خلالها أهل الباطل إلى أهل الحق، وذلك عبر الترويج لكلام قد أخطأ فيه قائله أو خانه التعبير فيه أو سبق به لسانه، فيأتي بهذه الكلمات ويلقيها في وجوه المؤمنين محاولا الاستدلال بها على باطله أو على الأقل التشكيك في القائل وعقيدته، فأما الثانية - وهي التشكيك في القائل- فسنجيب عليها لاحقا، وأما الأولى - وهي الاستدلال على الباطل- فهي محور حديثنا في نقطتنا التالية وعنوانها كلام العلماء يستدل له لا به.

❊ ❊ ❊

(١) اقرأ مأجورا هذه الآية واقرأ ما قبلها وما بعدها من الآيات تجد أن الخطاب لنساء النبي ﷺ لا سواهن والآية هي قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(٢) وهو قول النبي ﷺ: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» والحديث مبثوث في كتب السنن انظر سنن الترمذي ح(٣٨٧١)، ومسند أحمد ح(٢٦٥٠٨) وغيرهم.

كلام العلماء يستدل له لا به

كثيراً ما يحاول البعض استغلال أقوال الرموز[١] كوسيلة لإسقاط معتقد سليم أو تمرير معتقد فاسد، أو استخدام القول الذي صدر من هذا الرمز كوسادة تحمي المعتقد الفاسد من التهشم على الرغم من سقوطه، وذلك توطئة لغرسه في قلوب المغرر بهم من المسلمين.

فأقول كلام العالم لا يُقبل إلا بدليله، فلا عبرة بقول كائن من كان إن لم يكن مصدره الوحي، فنحن لا نتعبد بكلام الرجال وإنما نتعبد بشرع اللَّه عز وجل، وكل عالم مهما علا شأنه فلا بد من أن يقع في الزلل وزلة العالم أشد خطرا على الإسلام من خطأ غيره فإنه قد يلتبس على الكثيرين بسبب قول

(١) قصدت التعبير بلفظ الرموز بدلا من العلماء، وذلك ليشمل اللفظ العلماء وغيرهم من المبرزين، فالأقوال التي يستدل بها أهل الباطل قسمان:

الأول: عبارة عن زلات وقع فيها أهل العلم إما عن اجتهاد لم يتيسر له موافقة الصواب فيه، أو عن سبق لسان أو خطأ في التعبير، واستغله ضعاف النفوس في الترويج للباطل، فأما الاجتهادات التي غاب عنها التوفيق فترد على أصحابها ويعتذر لهم، وأما سبق اللسان وسوء التعبير فالتعامل معه سهل إذ يكفي أن نبحث عن نص واضح جلي يبين معتقد هذا العالم ويرد به النص المشتبه.

الثاني: عبارة عن أقوال لأنصاف علماء أو متطفلين على موائد العلم، وهذه قد يجد الإنسان صعوبة في التعامل معها أحياناً إذ أن كثيراً منهم قد حاز على صيت وسمعة صنعها له أهل الباطل لإغواء الناس به وخداعهم عن طريقه، وهذه هي حيلة (صناعة بطل) التي انطلت علينا مرارا، ولا يعصمنا منها إلا التزامنا وزن الرجال بالميزان الشرعي الصحيح وهو الكتاب والسنة وسنتحدث عنه في نقطتنا التالية.

هذا العالم، وكما يقال زلة العالِم زلة العالَم.

وقد فطن عقلاء هذه الأمة وقادتها إلى هذه الحقيقة فهذا زياد بن حدير يقول: قال لي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟» قال: قلت: «لا» قال: «يهدمه زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين»[(١)].

للَّه درك يا أمير المؤمنين فقد جمعت أشد الأخطار وأضرها في عبارة واحدة، وكأنك بيننا وتنظر إلى ما نحن فيه، فرضي اللَّه تعالى عنك وصلى اللَّه وسلم وبارك على من رباك وزكاك وعلمك.

وهذا معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مرض موته يقول للحارث بن عمير الزبيدي: «إياك وزلة العالم»، قال -أي الحارث-: فقلت: «وكيف لي - أصلحك اللَّه - أن أعرفها؟» قال: «إن للحق نورا يعرف به»[(٢)].

أقول: وما هذا النور -واللَّه- إلا اتباع القرآن والسنة.

وها هم علماء الأمة يرسخون هذا المفهوم في قلوب تلامذتهم وجلسائهم فنرى الإمام أبا حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «لا يحل لمن يفتي من كتبي حتى يعلم من أين قلت»[(٣)].

ونقرأ قول الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»[(٤)].

---

(١) سنن الدارمي (١ / ٨٢).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢١٤).
(٣) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء (ص١٤٥).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٧٥).

والإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤكد هذا المفهوم فيقول: «ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة رسول اللَّه ﷺ وتعزب عنه. فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول اللَّه ﷺ خلاف ما قلت، فالقول قول رسول اللَّه ﷺ وهو قولي. وجعل يردد هذا الكلام»[(١)].

ويأتي رجل إلى الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسأله فيقول: «أكتب كتب الرأي؟» قال: «لا تفعل عليك بالآثار والحديث» فقال له السائل: «إن عبد اللَّه ابن المبارك قد كتبها» فقال له أحمد: «ابن المبارك لم ينزل من السماء إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق»[(٢)].

أخيراً أقول إن وقفتَ على زلة لأحد ممن عرف بالصلاح والفضل، فلا ينبغي إسقاطه والوقيعة فيه وإنما يحمل أمره على أحسن المحامل، فقد اجتهد وأفتى بما تبين له، ولم يتعمد الزلل، فيبين خطؤه ويعتذر له، ورحم اللَّه سعيد بن المسيب إذ يقول: «ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب ولكن من الناس من لا ينبغى أن تُذكر عيوبه فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله»[(٣)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والواقع يعلم قطعا أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان، قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور بل ومأجور لاجتهاده فلا يجوز أن يُتبع فيها ولايجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين»[(٤)] وقد

---

(١) تاريخ دمشق (٥١/ ٣٨٩).

(٢) طبقات الحنابلة (١ / ٣٢٩).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ١٠٠).

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣ / ٣٢٠).

فصّل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طوائف الناس من زلات أهل العلم فقال: «ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول اللَّه ﷺ وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس إحداهما: حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق، معاملتهم فأهدروها لأجل هذه الشطحات وأنكروها غاية الإنكار وأساءوا الظن بهم مطلقا وهذا عدوان وإسراف فلو كان كل من أخطأ أو غلط تُرك جملة وأُهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها، والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن القوم وصفاء قلوبهم وصحة عزائمهم وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ونقصانها فسحبوا عليها ذيل المحاسن وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها واستظهروا بها في سلوكهم، وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون، والطائفة الثالثة وهم أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح بل قبلوا ما يقبل وردوا ما يرد»[(١)].

ونقطتنا الحالية لا انفكاك بينها وبين ما يليها بل بينهما تداخل وتشابه ولكني آثرت إفرادها لتتميم الفائدة بإذن اللَّه.

❊ ❊ ❊

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٩-٤٠).

الحق لا يعرف بالرجال
اعرف الحق تعرف أهله

حكمة من روائع الكلم، قالها علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومن اتخذها منهجا سلم من كثير من أسباب الزلل، فإن كثيرا من الناس قد يُعرضون عن الحق ويزهدون فيه ويمتنعون من قبوله بسبب إعجابهم وتأسيهم بأحد العلماء والتزامهم قوله وتعصبهم له، وإعراضهم عمن عداه.

وقد يقلب الأمر فيقبل الإنسان بالقول الباطل لمجرد صدوره من أحد الأعلام.

والمتعصب - لشخص أو رأي- لا يترك لنفسه مجالا للتفكير في صحة قول قدوته من عدمه، فما قاله قدوته صحيح وقدسيته لا تتزعزع بقول كائن من كان، والمتعصب لا يحاكم القول بل يحاكم القائل، ولربما سمع قولا منكرا، فتراه يشنع على القول وقائله، فإذا علم أن مصدر القول هو العالم الذي يتعصب له أو الفئة التي يناصرها وينتمي لها ترى موقفه ينقلب من مشنع إلى مادح ومسوغ ومعتقد ومدافع، فقاتل اللَّه الهوى كم أغوى وأضل.

وإذا استحوذ التعصب على الإنسان أهلكه وأفسد دنياه وآخرته، ففساد دنياه يكون باستحقاقه لبغض المنصفين وازدراء المتعلمين، أما فساد آخرته فيكون باتباعه هواه وإعراضه عما عداه، ففي كثير من الأحيان يتجلى له الحق، ويتأكد من فساد قول شيخه وعالمه، ومخالفته لكتاب اللَّه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكنه يكابر ويخادع نفسه ويغامر بأعز ما لديه وهو دينه،

وقد بين لنا المصطفى ﷺ خطورة هذا السلوك وأن مرتكبه قد وقع في عبادة غير اللَّه من حيث يعلم أو لا يعلم، فقد روى الترمذي بسنده إلى عدي بن حاتم قال: «أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب» فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن» وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه»[(١)].

وأما أهل الحق فهم ينزلون الناس منازلهم، وشعارهم «كل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك إلا الأنبياء والمرسلين»، وحصنهم التزام قول المعصوم واتّباعه وعرض أقوال الخلق على قوله.

يروى أن سائلا أتى الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسأله عن الزواج، فحثّ عليه ورغّب فيه، فقال السائل: «فإن إبراهيم بن أدهم لم يتزوج؟» فقال: «أوّه! وقعتَ في بنيّات الطريق»[(٢)].

فلم يأبه الإمام أحمد إلى مكانة إبراهيم بن أدهم وعبادته وزهده وعلمه، وبين للسائل خطأ اعتباره بفعل إبراهيم بن أدهم واقتدائه به وتركه فعل خير البشر من الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم، وعلى رأسهم أفضل الخلق محمد ﷺ فهم قد تزوجوا ورزقوا بذرية، وتعلق بفعل رجل مهما علا شأنه وارتفعت مكانته يبقى خطّاءً فلا يُعَلَّقُ الحق أو الباطل بفعله، وإنما يُعتبر من فعله ما كان موافقاً للقرآن والسنة.

---

(١) سنن الترمذي كتاب (تفسير القرآن) باب (سورة التوبة) حديث رقم (٣٠٩٥).
(٢) أي سلكت الطرق المتشعبة التي لا توصلك إلى مقصودك.

ونقل كلاما نفيسا لابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ الذي يقول:

«ولينظر في طريق رسول اللَّه ﷺ و صحابته، فإنهم القدوة. و لا يلتفت إلى بنيات الطريق، فيقال: فلان الزاهد قد أكل الطين. و فلان كان يمشي حافياً، و فلان بقي شهراً ما أكل.

فإن المحققين من هؤلاء المخلصين للَّه تعالى على غير الجادة لأن الجادة اتباع رسول اللَّه ﷺ وأصحابه و ما كانوا يفعلون»[١].

ومن المهم أن تعرف أن العالم مهما علا شأنه وسلم منهجه قد يخفى عليه الأمر ويعرفه من هو أقل منه علما، فقد ترى العالم يفتي بقضية وينبه بعض طلبة العلم على خطأ الفتوى فيرد الناس قول طالب العلم بحجة أن الشيخ أعلم، وهذا منهج غير صحيح، فالعبرة هي موافقة القرآن والسنة وليست العبرة بالرجال، وهذا سلوك أهل الجاهلية؛ فقد اغتر كثر بموقف سادات قريش كأبي جهل والمغيرة وغيرهم وأعرضوا عن الإسلام؛ إذ لم يتقبلوا أن يكون بلال وسلمان وصهيب أهدى من سادات قريش فقاسوا رجالا برجال فضلوا وأضلوا ولو أنهم قاسوا كلامهم وعقلوه لاهتدوا ولكن اللَّه فعال لما يريد.

وقد حصل أن اختلفت مع أحدهم في مسألة، وتناقشنا حولها فأتيته ببعض الأدلة على صحة قولي فلم يقبلها مني واستشهد بقول عالم مشهور[٢] وقال

(١) صيد الخاطر (ص٤٤٠).

(٢) أعرضت عن ذكر اسم العالم لأن الغرض هو الفائدة والعبرة من الموقف ولا حاجة لنا بالأسماء، وقدر اللَّه أن يتراجع العالم عن فتواه التي تعلق بها صاحبنا بعد حواري معه بفترة، فلا أدري هل قبل صاحبنا هذا التراجع ورضخ للحق أم بقي على ما هو عليه.

لي: من أعلم أنت أم هذا العالم، قلت: هو أعلم ولكن في هذه المسألة قد جانبه الصواب، وإن كانت المسألة تعتمد على الأسماء لا على الدليل فسآتيك بأسماء علماء آخرين خالفوا هذا العالم ووافقتهم أنا في قولهم فهل تقبل هذا، فسكت ولم يعلق.

وقد نقل لنا التاريخ قصصا كثيرة يخطئ فيها العالم ويصيب من هو أقل منه شأنا وعلما، وهذا مبثوث في كتب السير والتاريخ وما مقولة أمير المؤمنين: «امرأة أصابت ورجل أخطأ»[١] إلا من هذا الباب وهذا الجانب.

ولا يتوقف تأثير التعصب على التابع فقط بل يلحق المتبوع منه ضرر، إذ قد يصاب بالغرور ويظن أنه قد بلغ الغاية في العلم، فيرضى بما هو عليه ويتوقف عن التحصيل بل ربما يأتيه الشيطان من هذه المداخل فيغويه ويضله، وقد خشي الخلفاء الراشدون على صحابة النبي ﷺ من هذه الفتنة، فيروى أن عمر رضي الله عنه رأى جماعة يتبعون أبي بن كعب رضي الله عنه فلحقه عمر فرفع عليه الدرة فقال أُبَي: «يا أمير المؤمنين أعلم ما تصنع؟» قال: «ما ترى فتنة للمتبوع مذلة للتابع»[٢]، فمن هم دون الصحابة أحق منهم بالخشية والخوف من الفتنة.

وقال أحدهم: «لا يرفع أحد فوق درجته إلا فسد، ألا ترى إلى دودة النحل إذا جعلت في العسل كيف تموت؟»[٣].

وأما أخطر المشاكل وأفظعها فهي أن يكون المتبوع أحمقَ أو شبه أحمق،

(١) فتح الباري (٩/ ١٧٥).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧ / ٢٥٩).
(٣) التذكرة الحمدونية (١/ ٦٢).

فما إن يرى الناس يهرعون إليه ويسمعون قوله حتى يظن أنه قد شامم أبا بكر وعمر وعثمان وعليا، وقارع مالكاً والشافعي، وفاقَ ابن حجر والنووي، فلا يرى له في هذا العالم نظيرا أو مثيلا، فلا يقبل نصحا ولا انتقادا، وهم كثير في زماننا هذا واللَّه المستعان ولا علاج لمن أصيب بهذا الداء إلا صاعقة تريح منه العباد والبلاد، وصدق أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذ قال: «ما أبقى خفق النعال وراء الحمقى من عقولهم شيئاً»[(١)].

وبعد فراغنا من هذه النقطة ننتقل إلى الحديث عن خلق كريم، من عَدمه صَعُب عليه الوصول إلى الحق وهو التواضع.

❊ ❊ ❊

(١) صيد الخاطر ص(٣٤)، وقد روي نحوه في سنن الدارمي من قول الحسن البصري ح(٥٣٥) وقد صححه حسين سليم أسد إسناده، ويروى كذلك عن عمر كما في الحلية (٩/ ١٢).

تواضع للحق

التواضع للحق هو«أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له والذل والانقياد والدخول تحت رقه بحيث يكون الحق متصرفا فيه تصرف المالك في مملوكه فبهذا يحصل للعبد خلق التواضع ولهذا فسر النبي الكبر بضده فقال: الكبر بطر الحق وغمط الناس فبطر الحق: رده وجحده والدفع في صدره كدفع الصائل و غمط الناس احتقارهم وازدراؤهم ومتى احتقرهم وازدراهم: دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها ولما كان لصاحب الحق مقال و صولة[١]، كانت النفوس المتكبرة لا تقر له بالصولة على تلك الصولة التي فيها ولا سيما النفوس المبطلة فتصول على صولة الحق بكبرها وباطلها فكان حقيقة التواضع خضوع العبد لصولة الحق وانقياده لها فلا يقابلها بصولته عليها»[٢].

«ولو أن المبتدع تواضع لكتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ لاتبع ما ابتدع ولكنه أعجب برأيه فاقتدى بما اخترع فالتواضع أصل كبير يتفرع منه شيء كبير عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: ما من رجل يموت وفي قلبه مثقال حبة من خردل من كبر تحل له الجنة أن يريح ريحها ولا يراها وعن فضالة بن عبيد أن رسول اللَّه ﷺ قال: ثلاثة لا

(١) صول لفظ يدلُّ على قَهْرٍ وعُلُوّ. يقال: صال عليه يَصُول صَولةً، إذا استطال، انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣ / ٣٢٢).
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٣٣).

تسأل عنهم رجل ينازع اللَّه رداءه الكبرياء وإزاره العزة ورجل في شك من أمر اللَّه والقانط من رحمة اللَّه»[١].

«وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ثم قال: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ثم أخبر أن أشد أهل النار عذابا أشدهم عتيا على اللَّه تعالى فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ وقال عز وجل: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قيل في التفسير: «سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت، وقال ابن جريج: سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها»[٢].

ولازال أهل العلم من هذه الأمة يحذرون من الكبر فهذا ابن عيينة يقول: «من كانت معصيته في الشهوة فارج له، ومن كانت معصيته في الكبر، فاخش عليه، فإن آدم عصى مشتهيا، فغفر له، وإبليس عصى متكبرا فلُعن»[٣].

---

(١) التذكرة في الوعظ (ص ٩٧)، والحديث الأول في مسند الإمام أحمد ح(١٧٣٦٩) وقال عنه شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره، والثاني في صحيح ابن حبان ح (٤٥٥٩) وقد قال عنه شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبي علي عمرو بن مالك الجنبي.

(٢) إحياء علوم الدين (٣ / ٣٤٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٨ / ٤٦١).

وهذا محمد بن الحسين بن علي يقول: «ما دخل قلب رجل شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك»[١].

وكانوا رحمهم اللَّه أمثلة حية للتواضع، ونضرب لهذا مثالا بإمام الأمة في زمنه سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي قال وقد تجمع الناس حوله في مكة وكثروا عليه: «إنا للَّه، أخاف أن يكون اللَّه قد ضيع هذه الامة، حيث احتاج الناس إلى مثلي»[٢] قائل هذه العبارة علم من أعلام الأمة كانت تقطع إليه الأعناق وتضرب له أكباد الإبل، فما عسى من هو في مثل حالنا أن يقول فلا حول ولا قوة إلا باللَّه.

وقد لخص لنا الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهمية التواضع وعلاقته بموضوعنا فقال لما سئل عن التواضع: «أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعته، ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه»[٣].

فنسأل اللَّه تعالى أن يرزقنا التواضع ويجمع إليه الإنصاف، فمن حازهما حاز خيرا كثيرا، والإنصاف هو نقطتنا التالية.

❊ ❊ ❊

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣٤٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٧ / ٢٧٥).
(٣) جامع بيان العلم وفضله (١ / ٤٣٠).

تجرد للحق وأنصف من تُبغض كما تنصف من تُحب

الإنصاف هو أحد أهم الصفات التي ينبغي لطالب الحق أن يتحلى بها، وإنصافك لمن تبغض تحديدا دليل على إخلاصك واجتنابك للَّهوى، وذلك أن من الخصال المغروسة في النفس الانحياز لمن نحب وإن كان الحق ضده، والصد عن من نبغض وإن كان الحق معه، وصدق القائل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

ومتى ما تحلى الإنسان بالإنصاف فإنه سيبصر الحق ويصل إليه ويقبله حتى وإن كان صدوره على لسان من يبغضه.

والإنصاف هو منهج أهل الحق على مر العصور، واقرأ معي تعليق ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض شرحه لكتاب (منازل السائرين) لأبي إسماعيل الأنصاري الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ يقول: «شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه وكل من عدا المعصوم فمأخوذ من قوله ومتروك ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله ثم نبين ما فيه»[١]، وهذا واللَّه هو عين الإنصاف فرحم اللَّه علماء الأمة وعقلاءها.

كلنا يرى ويعاين المشكلات التي نعانيها في أيامنا هذه، والفُرقة التي سادت أوساط أهل الإسلام، وتركيز كل فريق على تشويه صورة الفريق الآخر بشتى الأساليب والوسائل، بحق أو بباطل، ومن هذه الفرق من

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٧).

فجر في الخصومة فسعى إلى أن يغرس الطائفية في أتباعه وهي بغض المخالف وكراهيته، فيبني بذلك في قلوبهم جدرانا وحصونا ضد كلام الخصوم، فنلاحظ أن من تشرّب الطائفية بات يبغض النظر إلى أحد المنتمين للفئة الأخرى - ولم نقل السمع- فالبغض بلغ عنده مبلغه فلم يعد يقبل رؤيته فضلا عن الاستماع إليه، وإن قُدّر له أن يسمع كلامه فإنه يسمعه ليتصيد الأخطاء لا ليفهم ويعقل ويقيّم، ولو لم يجد في كلامه خطأً لسعى إلى تأول أي كلمة وتحميلها ما لا تحتمل، وما هذا إلا ليقنع نفسه بأن هذا الشخص على باطل وأنه هو صاحب الحق.

ولا يخفاكم أن هذه المنهجية بعيدة كل البعد عن منهجية طالب الحق بل هي خداع للنفس وقتل للضمير، فطالب الحق يحكم على صحة القول من عدمه بعد أن يزنه بميزان الكتاب والسنة، فما وافقهما فهو الحق أيا كان قائله، وما خالفهما فهو الباطل.

ولا بد للإنسان من وقفة شجاعة يواجه فيها حقيقة معتقده ويستعرض فيها أدلته وحججه، وقد ييسر اللَّه تعالى لك ناصحا مرشدا يعينك على الوصول إلى الحق، ومشكلة الناصح أنه قد يضطر إلى إسماعك كلاما تكرهه ولا تطيقه، وقد اقتضت حكمة اللَّه عز وجل ألّا تكون لذة صافية في هذه الدنيا إلا وفيها ما يشوبها من مشقة أو كدر أو تعب أو غير ذلك، فلذة الهداية لا بد أن يصاحبها أذى قد يكون قوليا أو فعليا، فلا راحة ونعمة كاملة إلا في جنات النعيم -أسأل اللَّه أن أكون وإياك من سكانها-، ورحم اللَّه ميمون بن مهران إذ يقول لصاحبه: «قل لي في وجهي ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاهُ حتى يقول له في وجههِ ما يكره»[١].

---

(١) حلية الأولياء (٤/ ٨٦).

ولا بد لك من عرض الأقوال التي توجه لك -وإن كرهتها- على كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وإلا كنت مقصرا في حق نفسك ظالما لها جانيا عليها.

كما أنه لا بد للإنسان من اتباع المنهج التالي: «قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب».

ومعيار الصواب والخطأ هو في موافقة القرآن والسنة أو عدمه، وكم من عالم بذل وسعه واجتهد ولكنه خالف في اجتهاده الصواب، ومثل هذا يثاب على نيته واجتهاده، ويرد قوله الخاطئ عليه كما مر معنا في قول ابن القيم.

وكان علماء الأمة يحرصون على غرس هذا المنهج الوسطي المنصف في قلوب تلاميذهم وجلسائهم، فها هو الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «هذا رأي النعمان بن ثابت - يعني نفسه - وهو أحسن ما قدرت عليه؛ فمن جاء بأحسن منه فهو أوْلى بالصواب»(١).

ونُقل عن الإمام الشافعي أنه قال: «ما ناظرت أحداً إلا قلت: اللَّهم أجْرِ الحق على قلبه ولسانه؛ فإن كان الحق معي اتبعني، وإن كان الحق معه اتبعته»(٢)، وكان عبد اللَّه بن أحمد بن حنبل يحكي عن أبيه أنه قال: قال الشافعي: «أنتم أعلم بالحديث والرجال مني؛ فإذا كان الحديث الصحيح فأعلموني به أي شيء يكون: كوفياً أو بصرياً أو شامياً حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً»(٣).

فهكذا كانوا رحمهم اللَّه وهكذا ينبغي أن يكون أهل الحق.

---

(١) الإنصاف للدهلوي ص(١٠٤).
(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٢/ ١٥١).
(٣) العلل ومعرفة الرجال (١/ ٤٦٢).

انظر نظرة شمولية للموضوع

غياب النظرة الشمولية هو علة كثير ممن انجرف في تيارات الباطل، وقد تاهت أمم وضلت وعلتها النظرة القاصرة للموضوع، وفي هذا مثال جليل عظيم النفع سطره ابن الجوزي فقال رَحِمَهُ اللَّهُ :

«واعلم أن من نظر إلى تعظيم شخص ولم ينظر بالدليل إلى ما صدر عنه، كان كمن ينظر إلى ما جرى على يد المسيح صلوات اللَّه عليه من الأمور الخارقة، ولم ينظر إليه فادعى فيه الإلهية ولو نظر إليه وأنه لا يقوم إلا بالطعام لم يعطه إلا ما يستحقه»[١].

ونقول صدق رَحِمَهُ اللَّهُ فكيف يمكن أن يعتقد الإنسان بإلهية المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وهو يجوع ويعطش ويمرض وينام ويقضي حاجته؟ ولو حرم الطعام والشراب لما بقي على قيد الحياة، فلو نظر النصارى إلى هذا الجانب في المسيح لعلموا أنه بشر لا يختلف عن غيره، ولو دمجوا إليه صلاحه واستقامته ومعجزاته والخوارق التي جرت على يديه عَلَيْهِ السَّلَامُ لعلموا أنه نبي مرسل، ومن نظر إلى أحد الجانبين دون غيره جاء حكمه قاصرا، فمن نظر إلى صفات المسيح البشرية دون باقي صفاته التي سبق ذكرها لقال هو بشر فلا يتميز عني بشيء ولن أؤمن له، ومن نظر إلى معجزاته دون باقي صفاته لادعى فيه الربوبية أعاذنا اللَّه من

(١) تلبيس إبليس (ص ٢٠٩).

كلا القولين، وقد نبهنا رسولنا ﷺ إلى ضرورة النظرة الشمولية وأنها قد تعصمنا -بإذن اللَّه- من الافتتان بأعظم الفتن، وهي فتنة الأعور الدجال، فقال ﷺ: «إني لأنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه ولكني سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه إنه أعور وإن اللَّه ليس بأعور»[(١)]، فمن نظر إلى الخوارق التي تجري على يديه من إحياء الموتى وإنزال المطر وإنبات الزرع وغيرها، سيعتقد فيه الربوبية عياذا باللَّه، ومن نظر إلى النقص فيه وأشده عور عينه لعلم حاله، فلو كان إلها لما كان ناقصاً.

وإن كانت هذه النظرة يمكن تفيدنا و تنقذنا من أعظم الفتن وأظلمها وأحلكها، ففائدتها ونفعها في الفتن الأقل فتكا وخطرا أظهر وأعظم.

وقد يجني الإنسان على نفسه إذا لم يستوف نقطة البحث من جميع جوانبها، فقد رأينا أناسا يبدأون رحلة بحثهم عن الحق بالنظر من زاوية ضيقة إلى موضوع البحث، وبعد ذلك يعلن نتيجته التي وصل إليها من خلال تلك النظرة القاصرة ويرفض قبول أي قول يخالف ما توصل إليه وحجته أنه قد بحث وعرف الحق، وحقيقة أمره أنه ما بحث وإنما لبس عليه الشيطان ووضع بينه وبين الهداية سورا يصعب تخطيه.

وقد سبق وذكرنا أن الإنسان يتوجب عليه النظر إلى أصول الخلاف لا إلى فروعه وهذا أقصر الطرق للوصول إلى الحق، ومع هذا فإن الفروع إذا نظر إليها الإنسان نظرة إنصاف وصدق في البحث عن الحق فقد يصل من خلالها إلى معرفته، وسأذكر قصة يتضح المقصود من خلالها.

---

(١) صحيح البخاري كتاب (الفتن) باب (ذكر الدجال) ح(٧١٢٧).

موقفنا التالي كان مع شخص استحوذت عليه الطائفية البغيضة، فصار يوجه سهام الطعن إلى المسلمين وعلى رأسهم أفاضل البشر بعد الأنبياء صحابة النبي ﷺ، ويرمي مخالفيه بشتى التهم (كفر، زندقة، ضلال، بدعة) وهلم جراً.

جاء في أحد الإيام اتصال منه يسأل عن قول اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: ٦].

فقال لي: هذه الآية دليل على أنك من أهل الباطل، وأنك مخالف لصريح كتاب اللّه تعالى.

فقلت: وكيف ذاك؟

قال: ألست تقوم بغسل رجليك في وضوئك.

قلت: بلى.

قال: واللّه تعالى يأمرنا بمسحها لا غسلها فأنت بالتالي مخالف لكتاب اللّه فاتق اللّه في نفسك.

قلت: هل قرأت الآية وتمعنت فيها واستوفيتها من جميع جوانبها؟

قال: طبعا.

قلت: كلا لم تفعل ولو أنك فعلت لما اتصلت علي وفاتحتني بمثل هذا الموضوع وبدأت تضلل الناس بناء على استقراء قاصر للدليل، انظر معي إلى قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾، ما نوع الحركة الإعرابية فوق حرف اللام في كلمة أرجلكم؟

قال: الحركة هي الفتحة فوق اللام.

قلت: وماذا عن الحركة في حرف السين من كلمة رؤوسكم؟

قال: هي الكسرة.

قلت: لو كان عطف كلمة أرجلكم على المسح لوافقت حركته حركة كلمة رؤوسكم أما وقد جاءت منصوبة فهناك نكتة لغوية لم تفهمها، ومع هذا أتيتني واتهمتني بالضلال وبمخالفة كتاب اللَّه - غفر اللَّه لك، وهذه النكتة هي العطف على البعيد فعُطفت كلمة أرجلكم على الغسل واتحدت مع المغسولات - وهي اليدين والوجه- في الحركة الإعرابية وهي الفتح، ولكنها أُخّرت وفي تأخير ذكرها فائدة وحكمة وهي التدليل على ترتيب هذه الأعضاء في الغسل، فالرِّجلان هي آخر ما يغسل من الأعضاء.

وحتى لو لم تفهم هذا فيكفي تغير حركة كلمة أرجلكم الإعرابية لتتوقف وتتفكر في سبب هذا الاختلاف وأن تبحث عن الجواب ولكنك اتهمت الناس قبل أن تحيط بحيثيات الموضوع بشكل كامل، ولو أنك نظرت مليا وتفكرت في نفس الآية لعلمت أنك أنت من خالف كتاب اللَّه صراحة لا أنا، والآية تدل بشكل واضح على صحة ما أنا عليه.

قال: وكيف خالفته أنا؟ وكيف تدل الآية على صحة ما أنت عليه؟

قلت: كيف تغسل يديك في وضوئك؟

قال: أجري الماء ابتداء من مرفقي إلى أصابعي.

قلت: واللَّه تعالى يقول في الآية: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾، واتفق أهل اللغة على أن (إلى) هو حرف جر يدل على الغاية.

فأنا على سبيل المثال عندما أقول: ذهبت إلى المنزل، فهذا يعني أن المنزل كان هو ما انتهيتُ إليه لا أني ابتدأت الذهاب من المنزل، فالواجب عليك أن تبدأ بغسل يديك من أصابعك وتنتهي إلى المرفق لا العكس، ففعلك مخالفة واضحة لصريح الآية.

وما لا تعلمه أن من أفتاك بهذا الأسلوب في الوضوء قد استند إلى رواية نسبت إلى جعفر الصادق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو بريء منها، ونص الرواية هو: «عن الهيثم بن عروة التميمي قال سألت أبا عبد اللَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ عن قول اللَّه عز وجل: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ فقلت: هكذا ومسحت من ظهر كفي إلى المرفق، فقال: ليس هكذا تنزيلها إنما هي «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم من المرافق»، ثم أمرّ يده من مرفقه إلى أصابعه»[1].

ولم يتنبه من صحّح هذه الرواية إلى ما اشتملت عليه من طعن واضح وصريح في كتاب اللَّه، وغفل أن جعفرا الصادق لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا القول.

ولقد وجدت من تعصب وانتصر لهذه الرواية وسعى إلى التعسف في تأويلها، مع أن بطلان هذه الرواية واضح ويكفي مخالفتها الصريحة لكتاب اللَّه تعالى، وقد تواتر عن أئمة الهدى من أهل البيت ومن غيرهم قولهم: «ما خالف كتاب اللَّه فاضربوا به عرض الحائط»، فكيف إن كان في الرواية تصحيح وتعديل على كتاب اللَّه! ونحن ننزه جعفرا الصادق عن ذلك.

وأزيد بأن في سند هذه الرواية ضعيفاً جداً وهو سهل بن زياد بل بلغ

---

(١) الكافي للكليني (٣ / ٢٨).

ببعضهم أن اتهمه بالكذب[١]، فالرواية لا يمكن قبولها لا سندا ولا متنا.

وحتى لو لم يكن في سندها علة، فعلة المتن كافية في ردها وعدم قبولها.

فغاب هذا الشخص بعدها، ولم نسمع عنه.

وأختم حديثي بأن أنبه أن الخلاف إن كان فقهيا فقط فهو خلاف يمكن التعايش معه، بل وحتى إن كان الخلاف عقديا وبقي محصورا على موائد البحث العلمي فيمكننا التعايش مع بعضنا والبحث عن الحق والتدليل عليه، ولكن الطائفية التي يسعى البعض إلى إذكائها ليس هذا حالها، فهي تستثمر الخلافات وتحولها من علمية إلى خلافات دموية تستباح فيها الدماء والأعراض، فاستباح الطائفيون دماء وأعراض خير الأمة وهم الصحابة[٢] رضي الله عنهم فتجدهم يبيحون الوقيعة فيهم والطعن في أعراضهم، ويسحبون هذا الحكم على أتباع الصحابة في زمننا الحالي، وللأسف أصبحنا نسمع أصواتا تثير مثل هذه النعرات وتنادي بالثارات وتؤجج المشاعر، ولكن عزاءنا أن أمثال هؤلاء قلة منبوذون من كل فئات المسلمين ولله الحمد، ونسأل الله تعالى أن يعصمنا من الفتن.

وإن يسر الله لنا أن نجمع بين النظرة الشمولية والتركيز على الأصول أفلحنا بإذن الله تعالى، وهي نقطتنا التالية.

(١) معجم رجال الحديث (٩/ ٣٥٤)، ومن الغريب أنني قد وقفت على بعض من صحح مثل هذه الرواية على الرغم من ضعف إسنادها ونكارة متنها، ولا سبب يدفعه إلى هذا إلا إن كان أُتي من باب الهوى، نسأل الله السلامة.

(٢) لفظ الصحابة يشمل رؤوس أهل البيت كالعباس وعلي وجعفر والحسن والحسين وغيرهم ممن جمع شرف الصحبة والنسب رضي الله عنهم وسهام الطعن الطائفية قد طالتهم جميعا ولم تستثن أحدا منهم والله المستعان.

ركز على الأصول تأتك الفروع

عندما يصاب الإنسان بمرض ويسعى إلى علاجه فأول ما يتوجب عليه معرفته هو سبب هذا المرض ومكمن العلة في جسمه، وبعد تشخيص المرض تبدأ رحلة البحث عن العلاج المناسب، أما أن يجرب علاجات مختلفة دون تشخيص ودون معرفة المرض فهذا قد يؤدي به إلى الهلاك لا الشفاء.

والبعد عن الحق وعدم معرفة أهله، هو أعظم مرض يمكن أن يصاب به المرء وأسبابه كثيرة (الهوى- الجهل- التعصب.... الخ)، ولعلاجه هناك مرجعية شافية كافية وهي كتاب اللَّه تعالى، فالعلاج موجود ولا شك فيه وقد قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وهو سبحانه أصدق القائلين، وأهم خطوات العلاج أن تتجنب الفرعيات وتنظر إلى أصول الخلاف بين الفرق المختلفة، ومتى ما حصرت الأصل المنشود فانظر هل لهذا الأصل دليل حقيقي في كتاب اللَّه أم لا؟ وذلك وفقاً لما سبق وأوردناه عن كيفية تمييز الأصل الصحيح من الباطل، فإن كان دليل الأصل المختلف عليه موجوداً واضحاً بيناً قطعياً فابق على ما أنت عليه ولا تبال، أما إن لم تجد دليل الأصل المنشود أو وجدت دليلًا محتملًا فهذا يدل على أنك لست على حقٍّ فاترك ما أنت عليه وارضخ لأمر اللَّه سبحانه.

واعلم أن طلاب الحق كثر، وقليل منهم من يتوصل إلى معرفته، وذلك

لأنهم شغلوا أنفسهم بالفروع بل وأحياناً بفروع الفروع، فيخوضون فيها دونما علم ويستعرضون الشبهات المختلفة البعيدة عن موطن الخلاف، فتراهم لا يصلون إلى نتيجة، بل رأينا أناساً غمسوا أنفسهم في هذه الشبهات الفرعية حتى آل بهم الأمر إلى أن تركوا الدين، وما هذا إلا بسبب عدم تقرير منهجية صحيحة في البحث عن الحق.

وقد تتعثر أحيانا بشخص يثير شبهات أكل عليها الدهر وشرب، فيشرِّق ويغرب ويأتيك بالمتردية والنطيحة من القصص التي وردت في التاريخ عن الخلافات التي جرت بين الصحابة وعن ارتكاب بعض صحابة النبي ﷺ للذنوب، يريد من خلالها أن يطعن في عدالة الصحابة، وهذا في الواقع من التعلق بالشبهات والابتعاد عن أصول الخلاف، فوقوع الإنسان في الذنوب سواء كان صحابيا أو دونه، لا يرفع عنه لفظ العدالة مطلقا، وإلا لزم أن لا يوصف شخص بالعدالة وفى ذلك يقول الإمام الشافعى: «لو كان العدل من لا ذنب له لم نجد عدلًا، ولو كان كل مذنب عدلًا لم نجد مجروحاً، ولكن العدل من اجتنب الكبائر وكانت محاسنه أكثر من مساويه»[1]، فوقوع بعض الصحابة في معاصي لا ينقص من قدرهم فنحن نعلم أنهم خطاؤون وكذلك نعلم أن الخطأ يغفره رب العزة بالتوبة والإنابة وبالأعمال الصالحة فيتوجب على من أراد أن يطعن في الصحابة أن يثبت أمورا:

١- أن يُثبت النص بشكل قاطع فلا يصح أن يُحكم على إنسان دون بينة قاطعة.

(١) الروض الباسم لابن الوزير (٢/ ١٠٧).

٢- أن يُثبت الخطأ على جميع الصحابة أو أغلبهم على الأقل، فالصحابة الذين قُبض عنهم رسول ﷺ يعدون بالآلاف، فعندما يخطأ منهم خمسة أو عشرة أو حتى مائة فلا يصح أن ينسحب الخطأ على الجميع بل يبقى الحكم للأغلبية.

٣- أن يُثبت أنهم جميعا قد تعمدوا هذا الخطأ ولم يقعوا فيه باجتهاد أو تأويل يُعذرون فيه.

٤- أن يُثبت عدم توبتهم عن هذا الخطأ فلو افترضنا ارتفاع وصف العدالة عنهم حال المعصية فإنها ترجع لهم عند التوبة[1]، وهذا متفق عليه عند العقلاء، وإلا لزم الطاعن في صحابة النبي أن يطعن بعلمائه أيضاً فهم بشر وحتما تقع منهم المعاصي والأخطاء فيتوجب عليه أن ينفي عنهم

(١) قال المجلسي في بحار الأنوار (٨٥/ ٣٠-٣١): «وإذا زالت العدالة بارتكاب ما يقدح فيها فتعود بالتوبة بغير خلاف ظاهرا، وكذلك من حد في معصية ثم تاب رجعت عدالته وقبلت شهادته، ونقل بعض الأصحاب إجماع الفرقة على ذلك، ولعل الأشهر أنه لا يكفي في ذلك مجرد إظهار التوبة، بل لابد من الاختبار مدة يغلب معه الظن بأنه صادق في توبته. ومن الأصحاب من اعتبر إصلاح العمل، وأنه يكفي في ذلك عمل صالح ولو تسبيح أو ذكر، ومنهم من اكتفى في ذلك بتكرر إظهار التوبة والندم»، وقال السبزواري في كفاية الأحكام (١/ ١٤٤-١٤٥): «اعتبر المتأخرون في معنى العدالة الملكة التي تبعث على ملازمة التقوى والمروءة، ولم أجده في النصوص ولا في كلام من تقدم على العلامة من علمائنا. وإذا زالت العدالة بارتكاب ما يقدح فيها فتعود بالتوبة، لا أعلم فيه خلافا بين الأصحاب ولا ريب فيه، وكذلك من حد في معصية ثم تاب رجعت عدالته وقبلت شهادته» وقال الخوئي في منهاج الصالحين(١/ ١٢): «ترتفع العدالة بمجرد وقوع المعصية، وتعود بالتوبة والندم، وقد مر أنه لا يفرق في ذلك بين الصغيرة والكبيرة» وكذا الحال عند الروحاني (منهاج الصالحين١/ ١١) والسيستاني في منهاج الصالحين(١/ ١٨) والفياض في منهاج الصالحين(١/ ٢١) ووحيد الخرساني في منهاج الصالحين(١/ ١٧).

صفة العدالة.

٥- وأخيراً ينبغي عليه أن يخرج من مأزق رده لمدح اللَّه تعالى لهم، فاللَّه تعالى مدحهم وترضى عنهم وهو يعلم أنهم يذنبون.

ولو ذرع الأرض مشرقا ومغربا، وابتغى إلى السماء سلما وسببا فلن يقدر أن يثبت هذه الأمور، وبالتالي فإثارة هذه الشبهات لن توصله إلى الحق.

وإن كان يريد الحق فعلا فينبغي عليه أن ينظر إلى مواطن الخلاف، أما وقوع معاصي من الصحابة فهذا أمر يتفق عليه المسلمون، وكون بعض المتطرفين يسعى لتضخيم هذه الهفوات ليقتات عليها، فهذا لا يغير من حقيقة الأمر.

وحقيقة الخلاف عند من يبغض صحابة النبي ﷺ ليس أنهم وقعوا في بعض المعاصي، وإنما الزعم بأنهم قد خالفوا أصلا من الأصول وهو تسليم الخلافة إلى شخص محدد بعينه نص اللَّه تعالى عليه وتوعد من لا يؤمن بهذا الخليفة بالوعيد، فينبغي عليهم التركيز على هذا الأصل والتأكد من صحة وجوده وإثباته بنصوص قطعية، وهذا قد ناقشناه بنوع من التفصيل في نقطة (استدل ثم اعتقد) فراجعه مشكوراً.

فمتى ما تبين بطلان مثل هذه الدعوى فباقي الشبهات لا قيمة لها ولا تتعدى - إن صحت - هفوة وقع فيها مؤمن ويغفرها الكريم ذي المنن.

وننتقل إلى ما يمكن أن يفيدنا في تقييم صحة ما يصل إلينا من أخبار فنقطتنا التالية هي أفعال الرجال مرآة لما في قلوبهم.

❊ ❊ ❊

أفعال الرجال مرآة لما في قلوبهم

فهم هذه النقطة يمكن أن يزيل كثيرا من الاحتدام الحاصل بيننا كمسلمين، وسنبدأ بمثال من الواقع يهدف إلى تبسيط ما يليه، فأعمل معي فكرك كي نصل إلى مبتغانا.

تخيل معي أن رجلا قد جاء إلى بيتك يزورك للمرة الأولى وكانت هذه الزيارة هي لقاؤك الأول به، وبعد أن قضى معك وقتا يسمح له بأخذ الانطباع المناسب عنك وعن صفاتك وخلقك، انتهى هذا اللقاء، وخرج هذا الشخص من عندك، وبعد هذا اللقاء بأيام بلغك عن هذا الرجل خبران:

الأول: ينص على أن هذا الرجل قد أبغضك ولم يتقبلك، بل قد رأى أنك رجل فظ سيء الخلق والطباع، بل وربما طعن في دينك.

الثاني: ينص على أن هذا الرجل قد أعجب بدماثة خلقك وطيب نفسك وحسن ضيافتك والتزامك بدينك.

فقطعا هناك خطأ في أحد الخبرين فكيف يمكنك أن تعرف مكمن الخلل؟

هناك طريقتان لا ثالث لهما[١]:

الأولى: أن تكون على معرفة بمن نقل إليك كلا الخبرين، فمن عرف فيهما بالوثاقة والصدق كان خبره هو الصحيح والآخر باطلًا.

(١) وهذا باستبعاد إمكانية السؤال المباشر، إذ هي قد تكون متعذرة أو عديمة الجدوى في حال كان الرجل منافقاً مثلًا.

الثانية: أن تنظر في فعل هذا الرجل، فتعرف أي الخبرين أصدق، ففعله وتعامله معك هو المرجح لصدق أحد الخبرين، فلو رأيت أن الرجل انقطع عنك ويتهرب حين يراك ولا يتصل بك ولا يرد على اتصالاتك فهذا يدل على صدق الخبر الأول، ولو رأيت هذا الرجل يكرر الزيارة لك ويكثر الاتصال بك ويدعوك لزيارته، ويفرح لدى رؤيتك فهذا يدل على صدق الخبر الثاني.

إلا في حال كان هذا الرجل خبيثا منافقا يظهر خلاف ما يبطن، فهو يذمك حال فراقه لك، ويظهر المودة حين لقائك.

ولو عرفنا ان هذا الرجل مشهود له بالالتزام والصدق والشجاعة من خير الناس، ولا يمكن أن يتخذ النفاق خلقا ووسيلة ليتقرب إليك عرفنا أن الخلل كان فيمن نقل لك الخبر فيكون هذا الناقل كاذبا يسعى للتفريق بينكما لحسد في نفسه أو ما شابهه.

ألست معي في ذلك؟

وبالتأكيد لن نجد مخالفا لنا، لأن ما سردناه هو مثال بسيط بعيد عن تعقيدات النفوس وما تشربته من أفكار وما يسيرها من هوى.

لماذا لا نعيد تطبيق المثال السابق بعد أن نضيف أسماء لشخصيات حقيقية ونعيد التفكير في حقيقة ما أشيع عن البغض والكراهية بينها.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لا يختلف فيه اثنان فهو صهر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وابن عمه، وليث الإسلام وفارس الحروب، من أصدق الناس لهجة ومن أسلمهم منهجاً.

إذا نظرنا إلى علاقة عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بباقي الصحابة رضوان اللَّه تعالى عنهم سنجد كتب التاريخ أوردت لنا أخبارا كثيرة نصها أن عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه وباقي الصحابة كانوا بمثابة الروحين في جسد، ولم يكن بينهم إلا المودة والرحمة، وسنجد في كتب أخرى خلاف هذا حيث صورت لنا عليا مبغضا لصحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وصورتهم بأنهم يكرهونه ويريدون فراقه بل وربما قتله.

إذن وحسب المثال السابق ما السبل لمعرفة أي الخبرين أصدق؟

كما سبق وأسلفنا ليس أمامنا إلا طريقان لا ثالث لهما:

الأول: أن ننظر في نَقَلَة هذه الأخبار إلينا فنعرف أيهم عرف بالصدق والوثاقة فيكون خبره هو الصحيح والخبر الآخر باطلًا، وهذا الطريق لا يقدر على السير فيه إلا العلماء وطلبة العلم، وذلك لأن النظر إلى رواة هذه الأخبار ومعرفة أحوالهم، يحتاج علما ومعرفة بكتب الرجال وكيفية الحكم على الرواة، والنظر في أقوال أهل العلم والترجيح بينها والتيقن من ثبوتها عنهم وتفاصيل كثيرة لا يقدر عامة الناس على التفرغ لتحصيلها.

الثاني: وهذا الطريق يشترك فيه العلماء وغيرهم، وهو النظر إلى فعل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]،ومن خلال فعل هذا الصادق الشجاع يمكننا أن نرجح

(١) قد يستشكل علينا شخص ويقول: حتى النظر في أفعال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحتاج إلى علماء ليتأكدوا من صحة نسبة هذا الفعل له، وهذا يُرد عليه بأن الأفعال التي ندعو إلى النظر فيها قد اتفق عليها المسلمون بجميع طوائفهم ومشاربهم ، كمبايعته للخلفاء أو وزارته لهم ومعاونتهم في القضاء والمشورة، أو مصاهرته لهم ، ولا يستطيع أحد جحدها ، فكلها ثابتة ولا يمكن ردها فبالتالي يمكن لكل إنسان أن يُعمل عقله وينظر في دلالتها مع الاطمئنان التام لصحتها.

صحة أحد الخبرين، وسنحصر هذه النظرة بأفضل صحابة النبي ﷺ وهم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم فنعرف علاقة علي بهم كي نحدد أي الخبرين نقبل ونسأل اللَّه تعالى الإنصاف:

* علي رضي الله عنه قد بايع الخلفاء الراشدين الذين سبقوه رضي الله عنهم ولو سلمنا جدلًا بقول من يشاغب ويحاول أن يلبس على الناس بأن عليا تأخر عن بيعة أبي بكر الصديق، فنقول هل بايع أم لم يبايع؟ العبرة بنهاية الأمر والأمور بخواتيمها، فهو قد بايع وسار مع الناس في ركب الصديق رضي الله عنه ولو كان في هذا الأمر مخالفة لأمر اللَّه ورسوله لما قبل به علي رضي الله عنه مهما طال به الزمن، ولو افترضنا أنه قد تأخر عن بيعة أبي بكر وأن هذا يعد دليلا على عدم رضاه عن بيعة الصديق، فنقول وماذا عن بيعة الفاروق عمر؟ وماذا عن بيعة ذي النورين؟ لا يختلف المسلمون أن عليا بايعهما ولم يتأخر عن هذه البيعة فهل يَعتبر المشغّبون هذا دليلا على رضاه عن بيعتهما أم يحاولون أن يوجدوا لهاتين البيعتين أعذارا فيخرجوا من مأزق قبول ورضى علي ببيعة الخلفاء رضي الله عنهم أجمعين، وأذكر أن أحد الإخوة ناقش رجلا يعترض على خلافة الصدّيق رضي الله عنه ويعتبر البيعة له غير شرعية إلا أن هذا الرجل لم يستطع أن ينفي مبايعة علي للصدّيق رضي الله عنهما وأقر بها ولكنه تمسك بأنها كانت بعد ستة أشهر من تولي الصديق رضي الله عنه للخلافة، فقال له أخونا: إذا علي رضي الله عنه قبل بها بعد ستة أشهر[1]

(١) وهذا الكلام من أخينا على سبيل التنزل فهو لم يناقشه في صحة دعواه وإنما سلم له بها ليظهر له ضعف موقفه وقلة حيلته، وإلا فقد ثبت أن عليا قد بايع الصديق مع سائر إخوانه من الصحابة ولم يتأخر عن البيعة.

وأنت لا زلت رافضا لها بعد ألف وأربعمائة عام؟ اقتد بعلي رضي الله عنه وارفضها ستة أشهر ثم تعال إلينا وادخل معنا في الرضى ببيعة الخلفاء ولتجتمع صفوفنا كما اجتمعوا رضي الله عنهم وكفاك إثارة للضغائن والفتن بسبب أمر جرى قبل أربعة عشر قرنا، بل أمر لم يحدث إلا في مخيلتك ولا أثر لخيالك على أرض الواقع.

* لم يكتف علي رضي الله عنه ببيعة الخلفاء الراشدين، بل قد صار وزيرا ومستشارا ناصحا وموجها لهم، بل ومحاميا ومدافعا وجنديا في حربهم لأعدائهم، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ولو كان علي قد بايع الخلفاء الراشدين دفعا للفتنة ولكي لا يحصل اقتتال بين المسلمين كما زعم البعض، لاكتفى بهذه البيعة ولاعتزل المشاركة في هذا الحكم وقد رأينا ذلك من بعض الصحابة عندما اشتعلت نيران الفتنة بين المسلمين بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه ، فقد اعتزل أغلب الصحابة هذه الفتنة ولم يشاركوا فيها بل لم يشارك فيها إلا عدد قليل منهم كما قال محمد بن سيرين رحمه الله : «هاجت الفتنة وأصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم عشرة آلاف فما خف فيها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين»[1]، وهذا فعل الصادق الشجاع الأبي فهو لا يداهن ولا يحابي ولا يُكره على فعل ما يخالف اعتقاده.

* لم تقتصر مشاركة علي رضي الله عنه للخلفاء الراشدين الذين سبقوه على ميادين الحكم والحرب، بل تعدى ذلك إلى ميدان الأسرة، فقد صاهر

(١) العلل ومعرفة الرجال (٣ / ١٨٢)، «وهذا الإسناد من أصح إسناد على وجه الأرض ومحمد بن سيرين من أورع الناس في منطقه ومراسيله من أصح المراسيل» منهاج السنة النبوية (٦ / ٢٣٧).

علي عمر وزوجه ابنته أم كلثوم، وتزوج هو أسماء بنت عميس أرملة الصديق بل وربى ابنه محمدا، ولو كان بين علي والصديق عداوة لما قبل أهل الصديق أن يكون محمد بن أبي بكر في رعاية علي، ولما أمنوه عليه ولما قبل علي رضي الله عنه بأن يأوي في بيته ابن عدوه، وهكذا استمرت المصاهرات في أبناء علي وأحفاده، ولا يمكن لأي إنسان إنكارها او إخفاءها.

وكذلك الخلفاء الراشدون الثلاثة رضي الله عنهم كانوا يبادلون عليًا رضي الله عنه المودة والحب، بل ويثقون به ثقة لا حدود لها، ونمثل على ذلك بما فيه أبلغ الدلالة على ما نقول:

* عمر رضي الله عنه ولى عليًا رضي الله عنه على المدينة أكثر من مرة في سفراته المتعدده إبان خلافته، تخيل ذلك: الصحابة متوافرون رضي الله عنهم وعمر ينتقي عليا من بينهم واليا على المدينة أكثر من مرة[(١)] ومنها مرة كانت في سفر عمر الشهير إلى القدس ليتسلم مفاتيحها[(٢)]، فكيف يأمن عمر عليا على عاصمة الخلافة في غيابه إن كان بينهما عداء وبغض؟ فلماذا لا يقوم علي بانقلاب على عمر وقد أصبحت المدينة الآن تحت يده بكل ما فيها من

---

(١) قد أحصيت أنا أربع سفرات خلف فيهن علي عمر رضي الله عنهما على المدينة، وقد تتبع الشيخ صفوت حجازي حفظه اللّه هذه السفرات فوجد أن عمر رضي الله عنه قد سافر أحد عشرة سفرة وجعل عليا رضي الله عنه خليفته على المدينة سبع مرات، خمس منها أسانيدها لا تقبل الشك فتأمل وقد ذكر الشيخ ذلك في أثناء مشاركته في مؤتمر السابقون الأولون الذي أقيم في دولة الكويت.

(٢) وقد ذُكر أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وسلم هو من كان على مقدمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تلك الرحلة فما أعظم قدر آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لدى الفاروق انظر البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ٦٥).

عدة وعتاد؟ ثم ماذا لو قتل الخليفة في سفره إلى من ستؤول الأمور؟ طبعا ستؤول إلى واليه على المدينة، على الأقل حتى يتشاور المسلمون وينظروا في أمر الخلافة فسيبقى هو مسيرا متحكما في الأمر من بعد عمر، فما الذي يجبر عمر على هذا؟ إلا الحب والود والثقة المتبادلة بينهما رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

* وتأمل معي أيضاً الموقف التالي: عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على فراش الموت بعد أن طعنه الغادر أبو لؤلؤة المجوسي، يفكر في أمر المسلمين وفيمن يتصدى لكرسي الخلافة من بعده، فماذا فعل؟ اختار ستة من الصحابة ومنهم علي ابن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ووصفهم بأنهم ممن توفي الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهو عنهم راض، فهل يعقل أن يكون بين عمر وعلي خلاف وبغض بعد هذا؟

* وأخيراً علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يدافع ويحامي عن عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ويبقي فلذات كبده وأشرف أهل الأرض في زمنهم نسبا، حفيدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -حسنا وحسينا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- حرسا وحماة لعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ويبادله عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذا الحب بأن يعزم على الحسن والحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بالرجوع وتركه خوفا عليهما وحبا لهما ولأبيهما عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أجمعين.

بعد ما سبق لا يبقى شك لدى عاقل أن عليا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يحب صحابة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وخاصة الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه، ولا يبقى لدى من يشغب إلا عذر واحد يتعلق به وهو أوهن من خيوط العنكبوت وهو يمثل الغاية في الطعن والتنقص من علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والعذر هو أن عليا أظهر خلاف ما يبطن وأنه كان يُسرُّ أمر كراهيته للشيخين ويتحدث بهذا لخاصته، ويظهر حبه ورضاه عنهما أمام الملأ. وأذكر أنه دار حوار بيني وبين أحد الأحبة بهذا الخصوص.

وكان الحوار يتناول فعل علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في زمن الخلفاء، وبعد أن احتججت عليه بما سبق وغيره من الأدلة على حب علي للصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، تعلق بآخر أمل لديه وهو دعوى أن عليا كان يتقي الصحابة ويدفعَ بأسهم بالتظاهر برضاه عنهم وحبهم وودهم فقلت له: علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندي من أشجع الشجعان وأنه لا يقبل بالذل والهوان ولن يقر باطلا، ولن يكتم حقا، وعندك هو مداهن يظهر خلاف ما يبطن ويقر الباطل ويكتم الحق فمن منا يمدح عليا ومن منا يذمه؟ ومن المحب له ومن المبغض؟

فقال لي بعد تفكير طويل: أنت من تحبه وأنت المادح له لست أنا.

فقلت: ومن منا المتبع لعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ والمقتدي به؟ أنا الذي أقر بخلافة الخلفاء وأرضى بها كما فعل علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أم أنت الذي ترفضها؟

فقال: ولكنه أقر بها ظاهراً ورفضها باطناً.

قلت: ونحن مأمورون باتباع ظاهر المرء لا باطنه والسرائر أمرها إلى اللَّه، فمن منا يتبع ظاهر علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ؟

قال: أنت.

فقلت: يتبقى لك التعلق بباطن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فأقول كيف علمت ما في باطن علي؟

فأجاب: نُقل في بعض الكتب أن عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان يتظاهر بحب الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، وأنه كان يسر إلى خواصه ببغضهم وقد صحح هذا بعض العلماء.

فقلت: وماذا عن خواص علي هل كان ظاهرهم بغض الصحابة أم حبهم؟

فقال: بل حبهم فمنهم من كان واليا للخلفاء الثلاثة، فسلمان الفارسي

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثلا كان واليا لعمر على المدائن.

ومن الأصدق عندك علي وخواصه أم من وصفتهم بالعلماء؟

فقال: علي طبعا.

فقلت: وأنا أقول ذلك وأصدق عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأحبه وأعتقد شجاعته ونبله ولذلك أحب من أحبهم وأرضى بمن رضيهم كخلفاء فعاونهم وآزرهم، ولو كانوا على غير الحق فسأتعلق برقبته يوم القيامة وأقول له أنت من خدعتني بمداهنتك لهم - وحاشاه- ولو لم تداهنهم لما أحببتهم أنا، أما أنت يا مسكين فبرقبة من ستتعلق؟

فسكت قليلا ثم قال: برقبة من أفتى لي بأن عليا لا يحب صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قلت: فمن أسلم موقفا وأحق بالأمن منا؟

قال: أنت.

وانتهى الحوار بيننا على هذا، ثم علمت بعدها بأنه قرر مثلي أن يتبع عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويدافع عنه وينفي عنه المداهنة والنفاق ولله الحمد والمنة.

وأختم هذه النقطة بوصف الله تعالى للمهاجرين والأنصار: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فأثبت سبحانه المحبة بينهم وتأليف القلوب، وأنه هو من رزقهم هذه المحبة فهل يبقى لدى مسلم شك في هذه الألفة؟

* * *

الحق لا يتجزأ

هذه النقطة قد لا يكون الغرض منها معرفة الحق بقدر ما تهدف إلى معرفة الخطأ، وذلك أنها تدخل من باب تشخيص المرض لا علاجه.

فأقول مستعينا باللَّه: كل المسلمين متفقون على أن اللَّه تعالى حافظ دينه ولا يختلف في ذلك اثنان، وقد جعل اللَّه تعالى لهذا الحفظ أسباباً، وتتمثل هذه الأسباب بطائفة تبقى على الحق متمسكة بدين اللَّه مهما تعرضت لفتن وإيذاء، وقد أخبرنا المصطفى ﷺ بذلك فقال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر اللَّه وهم كذلك»[١]، وقال ﷺ: «...وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة... الحديث»[٢]، فنص ﷺ على وجود طائفة في الجنة وهي الطائفة التي لم تغير ولم تبدل وهي التي حفظ اللَّه تعالى بها الدين، والأحاديث بهذا المعنى أكثر من أن نحصرها، «بل قد تواتر عنه ﷺ أنه قال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة وأخبر ﷺ أن اللَّه لا يجمع هذه الأمة على ضلالة و أن اللَّه لا يزال يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم فيه بطاعته، فعلم بخبره الصدق أن لا بد أن يكون في أمته قوم متمسكون بهديه الذي هو دين

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية ح (٣٦٤٠)، ومسلم كتاب الإمارة باب قوله لا تزال طائفة من أمتي ح (١٩٢٠) واللفظ لمسلم.

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٢٦) ح(٢٦٤١) وقد حسنه الألباني رحمه الله.

الإسلام محضاً وقوم منحرفون إلى شعبة من شعب دين اليهود أو إلى شعبة من شعب دين النصارى وإن كان الرجل لا يكفر بهذا الانحراف بل وقد لا يفسق أيضاً بل قد يكون الانحراف كفرا وقد يكون فسقا وقد يكون سيئة وقد يكون خطأ.

وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان فلذلك أمر العبد بدوام دعاء اللَّه سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلًا»[١].

وبعدما علمنا هذه الحقيقة وأن في الأمة فرقة على الحق الكامل، فينبغي إذن أن لا ننخدع بمقولة دائما ما يثيرها أتباع الفرق الباطلة خاصة عندما يشعرون بضعف حجتهم، وهي قولهم: «نعم لدينا شيء من الخطأ ولكن أيضاً الفرق المقابلة لديها أخطاء»، فيمنع بهذا القول أتباعه من البحث عن الحق فما دامت الفرق كلها لديها أخطاء فبالتالي لماذا تتعب نفسك وتبحث، فابق على ما أنت عليه، وهذا مكر ودهاء قل نظيره.

وينبغي أن تعلم أن اكتشافك لأخطاء في منهج طائفتك هو علامة على أنه منهج باطل مصطنع، فلا يدخل الباطل في شيء من دين اللَّه تعالى، واعلم أن كل الطوائف عدا الفرقة الناجية قد جمعت في منهجها الحق والباطل، فالحق الذي فيها يستخدم كأداة لجذب الأتباع وخداعهم، إذ لا يمكن لمسلم أن يتبع منهجا وهو يراه باطلا بكامله، فيستلزم وجود نسبة من الحق يروج بها لهذا الفكر والمعتقد.

---

(١) اقتضاء الصراط (١ / ٦).

والمحصلة مما سبق أن دين اللَّه لا يمكن أن يترك مفرقا ومشتتا بين الطوائف المختلفة فثلث لدى هؤلاء وربع لدى أخرين ونصف لدى غيرهم، دون أن تحتويه جميعه طائفة واحدة، إذ أن ضياع الحق بهذه الصورة بين الفرق لا يصلحه إلا نبي مرسل يوضح الحق ومعنى هذا الطعن في نبوة محمد ﷺ وأنه خاتم المرسلين، فيبقى وجود فرقة على الحق الكامل هو إعجاز هذا الدين وبه يكون حفظه، إذ أنه لو جوزنا إمكانية غياب الحق عن الأمة جملة للزم القول بإمكان الطعن في أصل الدين -والعياذ باللَّه- إذ قد يجوز اجتماع الأمة على الضلالة حينئذ وهذا يشمل الأصول والفروع، لذلك كان من لطف اللَّه بهذه الأمة أن جعلها معصومة من حيث الجملة لا الأفراد.

وهناك ممارسات واضحة البطلان إذا أعمل الإنسان فكره فيها علم أن هذا لا يمكن أن يكون من أفعال وأوامر رسولنا ﷺ، فمثلا لا يتخيل المسلم أن طقوس الرقص أو المشي على الجمر أو إسالة الدماء التي تمارسها بعض الطوائف وخاصة في دول جنوب شرق آسيا هي أفعال كان يمارسها النبي ﷺ، بل إن المنتسبين إلى هذه الفرق يقرون أن هذه الممارسات هي من الأخطاء التي تغلغلت وتسربت إليهم جراء مجاورتهم لجماعات غير إسلامية تمارس هذه الطقوس!

ولذلك فإنه ينبغي على المرء أن «يأخذ نفسه بالاحتياط في ما يخالف ما نشأ عليه، فإذا كان فيما نشأ عليه أشياء يرى أنه لا بأس بها، أو أنها مستحبة، و علم أن من أهل العلم من يقول إنها شرك أو بدعة أوحرام، فيأخذ نفسه بتركها حتى يتبين له بالحجج الواضحة صحة ما نشأ عليه، و هكذا ينبغي له

أن ينصح غيره ممن هو في مثل حاله، فإن و جدت نفسك تأبى ذلك، فأعلم أن الهوى مستحوذ عليها، فجاهدها»[١].

ولا بد أن ننبه أن الأخطاء التي نعنيها في منهج الفرقة ليست الأخطاء الفردية التي تصدر من الأفراد سواء كانوا من العلماء أو العامة، وإنما تلك الأخطاء التي يتفق عليها ويقرها ويجزم بشرعيتها علماء الفرقة أو غالبهم على الأقل إذ لا عبرة بالشاذ ولا عبرة بأفعال العامة.

وتقريبا للصورة وتسهيلا للاستفادة من فهم هذه النقطة، أنقل لكم حوارا دار بيني وبين أحد الإخوة وكان يشتكي من عدم معرفته الحق، هل الحق في مدح الصحابة والترضي عنهم أم في ذمهم ولعنهم والتبرؤ منهم، وكان يعاني من الحيرة الشديدة فكل من يحاوره بهذا الخصوص يأتيه بأدلة وآيات وأحاديث، وهو ليس لديه من العلم ما يمكّنه من النظر في هذه الأدلة ومعرفة صحتها من عدمه.

فقدمت له المقدمة السابقة وضرورة وجود فئة على الحق الكامل فأيدني وقال: مشكلتي أني لا أعرف كيف أصل إليها، فقلت: الأمر يسير، ما دمنا قد عرفنا أن هناك فئة على الحق الكامل فيكفينا أن نكتشف خطأ ومخالفة صريحة لأي من القولين -أعني مدح الصحابة أو الطعن فيهم- فتعرف أي الفريقين على الحق وأيهم على الباطل فقال: وكيف أعرف هذه المخالفة؟ قلت: من خالف منهم آية صريحة محكمة في كتاب اللَّه فإنه مخطئ قطعا ألا تتفق معي؟ فقال: طبعا، فلا يمكن أن يكون الحق مع من يخالف

---

(١) التنكيل للمعلمي (٢/ ٢٠٠).

كتاب اللَّه تعالى، قلت: اللَّه تعالى يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦] فانظر أي الفريقين يعتبر زوجات الرسول ﷺ أمهات له ويؤدي واجب هذه الأم تعرف أي القولين هو الأولى بالاتباع، وأي شبهة تعرض عليك ارجع فيها إلى كتاب اللَّه وانظر الموافق له من المخالف تهتدي إلى الحق بإذن اللَّه، فقام سعيدا مسرورا لمعرفته الحق بحمد اللَّه وحده وتوفيقه، وأخيرا ندعو بدعاء الإمام أحمد: «اللَّهم من كان على هوى أو على رأي هو يظن أنه على الحق فرده إلى الحق حتى لا يضل من هذه الأمة أحد»[١].

* * *

(١) تاريخ دمشق (٥/ ٣٢٠).

المنامات والكرامات ليست معيارا للحق

شاعت في زماننا هذا القصص والحكايات عن مزارات لا يتوجه إليها مريض إلا ويشفى، ولا يقصدها طالب حاجة فترد حاجته، والعلة في بركة هذه الأماكن أن فلانا الولي الصالح قد دفن فيها، أو سكنها أو داس بقدمه المباركة على أرضها! وبعد شيوع القصص عن هذا المكان تجده يبنى ويشيد ويجمل ويزين بأموال لو قسمت على فقراء المسلمين لأنقذتهم من الجوع والحاجة.

كما نسمع أحيانا من يهمس في آذاننا عن الرجل المبارك في منطقة كذا، وهذا الرجل مجاب الدعوة له من المعجزات والكرامات ما لا يحصيها إلا اللَّه سبحانه، فهو يشفي المرضى ويقضي الحاجات ويجيب الدعوات، وهناك من رآه يمشي على الماء وهناك من يقسم أنه رآه يطير! والقصص من هذا النوع أكثر من أن تحصى.

فهل هي صحيحة؟

وهل الخوارق التي تجري على يد هذا الولي أو في ضريحه هي الدليل على سلامة منهجه وحسن دينه ومعتقده؟

وما موقفنا نحن كمسلمين من هذه الخوارق؟

أما عن إجابة السؤال الأول المتعلق بصحة هذه الكرامات فأقول: إن الغالب على هذه القصص عدم صحتها، وغالبا ما يكون منبعها القائمون

على هذه المراقد، فهم يشيعون هذه الأخبار لإغراء وإغواء الناس وحثهم على زيارة هذه الأماكن، وهم بالتالي يستغلون الضعف البشري وتعلق قلوب الناس بالخرافات، لينتفعوا من الأموال التي ينفقها زوار هذه الأماكن، وإمعانا في تأكيد هذه القصص وكي يقطعوا على الزوار أي سبيل لاستخدام العقول، فإنهم يلجؤون إلى تمثيليات تجري أمام الزوار فيأتون بشخص سليم معافى يمثل دور المقعد المريض، ويثيرون حوله الجلبة كي يلفتوا أنظار الناس إليه، ويتجه هذا الممثل إلى القبر فيدعو ويطلب من هذا الولي وربما تمسّح في جدار القبر أو ألقى عليه أحدهم خرقة نظفوا القبر بها أمام الناس، فتجده فجأة ينتصب قائما كأنه شفي ببركات هذا الولي وطبعا لا بد من التكبير والتهليل ودموع الفرح كي يكتمل المشهد وتكتمل الخدعة، فيحصل التأثير لدى الزوار ويزداد اقتناعهم بفضل هذا المكان، فلا يمانعون من إنفاق ما لديهم طمعا في إرضاء هذا الولي!

وهذا الغالب على هذه القصص والخرافات، ولكن في أحيان قليلة قد يصدق الأمر ويحصل أمر خارق للعادة فعلا، كأن يشفى مقعد أو يبصر أعمى أو غير ذلك، وفي بعض هذه الحالات يكون سبب المرض نفسيا فيؤدى إلى مرض عضوي مثل (ذهاب البصر أو فقد القدرة على التحكم بأحد الأعراض)، فيكون اعتقاد المريض بأن في زيارته لهذا الولي علاجاً له من مرضه هو سبب الشفاء لا كرامة الولي، وبهذه الحال يكون المريض قد استفاد الشفاء ولكنه خسر إيمانه باللّه إذ تعلق بغيره، ولو أنه

أحسن اعتقاده باللَّه وظن في اللَّه تعالى ما ظنه في هذا الولي لشفي وربح إيمانه وارتفعت درجاته، ولابن القيم كلام في هذا الموضوع يكتب بماء الذهب حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بل ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم من الأدوية القلبية والروحانية وقوة القلب واعتماده على اللَّه والتوكل عليه والالتجاء إليه والانطراح والانكسار بين يديه والتذلل له والصدقة والدعاء والتوبة والاستغفار والإحسان إلى الخلق وإغاثة الملهوف والتفريج عن المكروب فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللّها فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء ولا تجربته ولا قياسه، وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أمورا كثيرة ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية بل تصير الأدوية الحسية عندها بمنزلة أدوية الطرقية عند الأطباء وهذا جار على قانون الحكمة الإلهية ليس خارجا عنها ولكن الأسباب متنوعة فإن القلب متى اتصل برب العالمين وخالق الداء والدواء ومدبر الطبيعة ومصرفها على ما يشاء كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التي يعانيها القلب البعيد منه المعرض عنه وقد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفس والطبيعة تعاوناً على دفع الداء وقهره فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه وفرحت بقربها من بارئها وأنسها به وحبها له وتنعمها بذكره وانصراف قواها كلها إليه وجمعها عليه واستعانتها به وتوكلها عليه أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية وأن توجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية ولا ينكر هذا

إلا أجهل الناس وأغلظهم حجابا وأكثفهم نفسا وأبعدهم عن اللَّه وعن حقيقة الإنسانية»[١].

ويبقى جزء قليل من حالات الشفاء التي تحدث في هذه المراقد، ويكون سببها شيطانا يريد إغواء الناس، فيتلبس بالمريض ويشل جزء من جسمه، ويوسوس له بالذهاب إلى الولي ليشفيه فإن استجاب له المريض في طلبه تركه وخرج منه فيشفى، ويتحقق بذلك ما أراده هذا الشيطان من إغواء هذا الشخص وربما أضل معه خلقا آخرين، فنسأل اللَّه السلامة.

أما السؤال الثاني وهو هل الخوارق التي تجري على يد هذا الولي أو في ضريحه هي الدليل على سلامة منهجه وحسن دينه ومعتقده؟

فالجواب: قطعا لا، فمثل هذه الأمور لا تحق حقا ولا تبطل باطلا، فمن له قليل اطلاع يعلم أن مثل هذه الخوارق والقصص ليست قاصرة على المسلمين ولا على مراقدهم ومزاراتهم، بل مثل هذه الخوارق تجري في الكنائس والأديرة والمعابد، لدى النصارى والهندوس والبوذيين وغيرهم من الملل، بل كل ملة من ملل الأرض تزعم حصول مثل هذه الخوارق لدى أربابها وهي سبيل مربح لدر الأموال واستمالة الأتباع، فهل يعتبر حصول مثل هذه الخوارق دلالة على صحة معتقداتهم؟ قطعا الجواب بالنفي، فسبيل معرفة الحق والباطل واضح في كتاب اللَّه، ولم يأمرنا اللَّه عز وجل بتتبع هذه الخوارق، وإن احتج أحد بمعجزات الأنبياء وأنها كانت هي الدليل على صدقهم، فنجيبه قائلين إن صدق الأنبياء واضح في سلامة منهجهم وصدق دعوتهم وموافقتها للفطرة السليمة لا المعجزات،

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٩).

فكثير من الناس آمنوا بالأنبياء ولم يبصروا معجزاتهم بل منهم من آمن بنبيه قبل أن يراه كحال أغلب الأنصار رضي اللّه تعالى عنهم وإنما آمنوا به لما بلغهم عن صدقه وسلامة ما يدعوهم إليه وموافقته للفطرة، ومن تتبع سير الأنبياء والمرسلين يجد أن معجزاتهم تنقسم إلى الأقسام التالية:

١- معجزات جرت لتثبيت قلوب الأنبياء وتسليتهم، وهذه المعجزات لم يطلع عليها أحد غيرهم، ويدخل في هذا القسم (معجزة النبي ﷺ في الإسراء والمعراج -تكليم اللّه تعالى لموسى عليه السلام).

٢- معجزات جرت إمعانا في إقامة الحجة على أقوامهم وزجرا للمكذبين منهم ويدخل في هذا القسم (ناقة نبي اللّه صالح، سلامة نبي اللّه إبراهيم من النار، انشقاق القمر لنبينا عليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام).

٣- معجزات جرت لتثبيت قلوب المؤمنين وترسيخ الإيمان في قلوبهم، ولإنقاذهم من شدائد مروا بها، ويدخل في هذا الباب (تكثير الطعام، وتحقق بعض الغيبيات أمام أعينهم).

والأمثلة كثيرة والمقصود أننا نؤمن بهؤلاء الأنبياء وصدق دعوتهم بغض النظر عن حصول المعجزات أو عدمها، فالدليل واضح على صحة دينهم، إذ أن دعوة التوحيد راسخة في فطرة الإنسان، ورضي اللّه عن أصحمة النجاشي، الذي ما إن حدثه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بدعوة نبينا ﷺ حتى آمن واتبع، وهذا حال المؤمنين الراسخين، وأما من لا يقنع إلا بالخوارق فهذا إيمانه مهزوز وضلاله سهل، فكثير من الخوارق سببها السحر والجن، ومنها ما يكون فتنة وابتلاء كخوارق الأعور الدجال وقد صدق اللّه تعالى القائل: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ

لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢- ٣] فمن كانت الخوارق معيار الإيمان لديه خاب وخسر، ومن كان معيار الصدق لديه هو موافقة الكتاب والسنة ربح وفاز.

وأذكر موقفاً مر به أحد الصالحين وفيه من العبرة والفائدة الكثير، وهو ما مر به عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: كنت مرة في العبادة فرأيت عرشا عظيما وعليه نور فقال لي: يا عبد القادر أنا ربك وقد حللت لك ما حرمت على غيرك، قال فقلت له: أنت اللَّه الذي لا إله إلا هو؟! إخسأ يا عدو اللَّه فتمزق ذلك النور وصار ظلمة وقال: يا عبد القادر نجوت مني بفقهك في دينك وعلمك... ولقد فتنت بهذه القصة سبعين رجلا، فقيل له -أي للجيلاني-: كيف علمت أنه شيطان؟ قال: بقوله لي حللت لك ما حرمت على غيرك، وقد علمت أن شريعة محمد ﷺ لا تُنسخ ولا تُبدل، ولأنه قال: أنا ربك، ولم يقدر أن يقول: أنا اللَّه لا إله إلا أنا[1].

فنجاته كانت بفقهه وبتمسكه بالقرآن والسنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ويتبقى لنا إجابة السؤال الأخير، وهو ما موقفنا من هذه الخوارق؟

وجوابه: أننا نؤمن بحدوث هذه الخوارق ومنها ما يكون فعلا كرامة أجراها اللَّه تعالى على يد ولي صالح، وهذه «لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى، فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق أعداء اللَّه لا من كرامات أولياء اللَّه، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر وقيام الليل والدعاء وإنما تحصل عند الشرك مثل دعاء الميت والغائب أو بالفسق والعصيان وأكل المحرمات كالحيات والزنابير والخنافس والدم وغيره من

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٧٢).

النجاسات، ومثل الغناء والرقص لا سيما مع النسوة الأجانب والمردان، وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن وتقوى عند سماع مزامير الشيطان فيرقص ليلا طويلا فإذا جاءت الصلاة صلى قاعدا أو ينقر الصلاة نقر الديك وهو يبغض سماع القرآن وينفر عنه ويتكلفه ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده، ويحب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد فهذه أحوال شيطانية وهو ممن يتناوله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦]»[١].

وأخيراً أذكر لقاء جرى بيني وبين أحد الإخوة وتبادلنا فيه بعض الحوارات عن مواضيع اختلفت فيها الآراء، وبعد أن أعيته الحجة، قال: إن أبي في زيارة لأحد الصالحين وسأطلب منه أن يدعو اللَّه عنده ليرزقك رؤيته في المنام فتقتنع بأني على حق، فقلت: أتركت كتاب اللَّه عز وجل وسنة رسول اللَّه ﷺ واستدللت بالمنامات؟ أبهذا أمرنا؟ أيُترك القطعي الواضح من كتاب اللَّه وسنة رسوله لمنام؟

وانتهى لقاؤنا على ذلك ولا زلت إلى يومي هذا أنتظر المنام الذي وعدت بأن يكون سببا لهدايتي إلى الحق.

وختاماً أقول:

هذا ما يسر اللَّه تعالى لي أن أورده من نقاط أسأل اللَّه تعالى أن يتم بها النفع ويهدي بها إلى الحق، وأسأله أن يكون عملي خالصا لوجهه الكريم

والحمد للَّه رب العالمين

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٠٢).

المراجع

- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي. دار المعرفة، بيروت، د ت.
- إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني. تحقيق الشيخ أحمد عزو عناية. دار الكتاب العربي دمشق، كفر بطنا ط/ الأولى ١٤١٩هـ.
- الاعتصام للشاطبى. المكتبة التجارية الكبرى. مصر، د ت.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية. دراسة وتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد. مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة ١٣٨٨هـ.
- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لتقي الدين ابن تيمية. تحقيق: محمد حامد الفقي. مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ط/ الثانية، ١٣٦٩هـ.
- الإنتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبد البر. دار الكتب العلمية، بيروت، د ت.
- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف للدهلوي. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. دار النفائس، بيروت ط/ ١٤٠٤هـ.
- بحار الأنوارللمجلسي. مؤسسة الوفاء، بيروت. لبنان. ط/ الثانية المصححة ١٤٠٣هـ.
- البداية والنهاية لابن كثير. مكتبة المعارف - بيروت، د ت.
- تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر. تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري. دار الفكر، بيروت ١٩٩٥م.
- التبيان للطوسي. تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير العاملي. دار إحياء التراث العربي ط/ الأولى رمضان المبارك ١٤٠٩هـ.
- التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي. مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان

ط/الأولى، ١٤٢٠هـ.
- التذكرة في الوعظ لابن الجوزي. تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح. دار المعرفة، بيروت ط/ الأولى ١٤٠٦هـ.
- تفسير جوامع الجامع للطبرسي. مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم. ط/ الأولى ١٤١٨هـ.
- تفسير غريب القرآن للطريحي. تحقيق وتعليق: محمد كاظم الطريحي. انتشارات زاهدي - قم، د ت.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير. تحقيق سامي بن محمد سلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع ط/ الثانية ١٤٢٠هـ.
- تفسير القرطبي. تحقيق: أبو إسحاق إبراهيم أطفيش. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٤٠٥هـ.
- تلبيس إبليس لابن الجوزي. تحقيق: د. السيد الجميلي. دار الكتاب العربي، بيروت ط/الأولى، ١٤٠٥هـ.
- التنكيل بما في تأنيب الكوثري من أباطيل للمعلمي اليماني. تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف الرياض ط/ الثانية ١٤٠٦هـ.
- جامع البيان في تأويل القرآن. لأبي جعفر الطبري. تحقيق أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة ط/ الأولى ١٤٢٠هـ.
- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر. تحقيق أبي الأشبال الزهيري. دار ابن الجوزي، السعودية ط/ الرابعة ١٤١٩ هـ.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني. دار الكتاب العربي، بيروت ط/ ١٤٠٥هـ.
- خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للنسائي. تحقيق: أحمد ميرين البلوشي. مكتبة المعلا - الكويت ط/ الأولى، ١٤٠٦هـ.
- الرسالة التبوكية زاد المهاجر إلى ربه. لابن القيم. تحقيق: د. محمد جميل

غازي. مكتبة المدني، جدة، د ت.
- الرسالة للشافعي. دراسة وتحقيق أحمد شاكر. مكتبه الحلبي، مصر ط/الأولى ١٣٥٨هـ.
- الروض الباسم لابن الوزير إعتنى به: علي بن محمد العمران. دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، د ت.
- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم. تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت ط/الرابعة عشرة: ١٤٠٧هـ.
- زهرة التفاسير. لمحمد أبو زهرة. دار الفكر العربي، د ت.
- سنن البيهقي الكبرى للبيهقي. تحقيق محمد عبد القادر عطا. دار الباز، مكة المكرمة ١٤١٤ هـ.
- سنن الترمذي لأبي عيسى الترمذي. أحمد محمد شاكر وآخرون. دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.
- سنن الدارمي. تحقيق: فواز أحمد زمرلي خالد السبع العلمي. دار الكتاب العربي - بيروت ط/ الأولى، ١٤٠٧هـ.
- سير أعلام النبلاء للذهبي. إشراف وتخريج: شعيب الأرنؤوط / تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مأمون صاغرجي. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ط/ التاسعة ١٤١٣هـ.
- صحيح ابن حبان. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة - بيروت ط/ الثانية، ١٤١٤هـ.
- صحيح البخاري للإمام البخاري. تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة. ط/ الأولى ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم للإمام مسلم النيسابوري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.

- صيد الخاطر لابن الجوزي. تحقيق عبد القادر أحمد عطا. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط/ الأولى ١٤١٢ هـ.
- طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى. تحقيق محمد حامد الفقي. دار المعرفة - بيروت، د ت.
- العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: وصي الله بن محمد عباس. المكتب الإسلامي، دار الخاني - بيروت، الرياض ط/ الأولى ١٤٠٨هـ.
- فتح الباري لابن حجر. دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان ط/ الثانية، د ت.
- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري. تحقيق: د.إحسان عباس و د.عبدالمجيد عابدين. مؤسسة الرسالة، بيروت ط/الثالثة ١٩٨٣م.
- الفصول المهمة في أصول الأئمة. للحر العاملي. تحقيق وإشراف محمد بن محمد الحسين القائيني. نكين، قم ط/الأولى ١٤١٨ هـ.
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام. دراسة وتحقيق: محمود ابن التلاميد الشنقيطي. دار المعارف بيروت - لبنان، د ت.
- الكافي للكليني. تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري. دار الكتب الإسلامية، طهران ط/ الخامسة ١٣٦٣ هـ.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير. دار صادر - دار بيروت ١٣٨٦هـ.

المصنف لابن أبي شيبة الكوفي. تحقيق وتعليق سعيد اللحام. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ط/ الأولى جماد الآخرة ١٤٠٩هـ.
- كفاية الأحكام للسبزواري. تحقيق: مرتضى الواعظي الأراكي. مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم ط/ الأولى ١٤٢٣هـ.
- مجموع الفتاوى لتقي الدين ابن تيمية. تحقيق: أنور الباز - عامر الجزار. دار الوفاء ط/ الثالثة، ١٤٢٦ هـ.

- مختصر العلو للذهبي. اختصره وحققه وعلق عليه وخرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت ط/ الثانية، ١٤١٢هـ.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار الكتاب العربي - بيروت ط/ الثانية، ١٣٩٣هـ.
- مستدرك الوسائل للنوري الطبرسي. تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، لبنان ط/ الثانية ١٤٠٨ هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون. إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة ط/ الأولى، ١٤٢١ هـ.
- معالم التنزيل للبغوي. حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش. دار طيبة للنشر والتوزيع ط/ الرابعة، ١٤١٧هـ.
- معجم رجال الحديث للخوئي. ط/ الخامسة ١٤١٣هـ.
- مفاتيح الغيب للرازي الشافعي. دار الكتب العلمية، بيروت. ط/ الأولى ١٤٢١هـ.
- منهاج الصالحين للخوئي. مهر - قم. ط/ الثامنة والعشرون ذي الحجة ١٤١٠هـ.
- منهاج الصالحين للسيستاني. مهر - قم ط/ الأولى ١٤١٤هـ.
- منهاج الصالحين للفياض. أمير - قم ط/ الأولى.
- منهاج السنة النبوية لتقي الدين ابن تيمية. تحقيق: د. محمد رشاد سالم. مؤسسة قرطبة ط/ الأولى، ١٤٠٦هـ.
- نهج البلاغة. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت. لبنان ط/ الأولى المصححة ١٤١٣ هـ.


محمد رسول الله